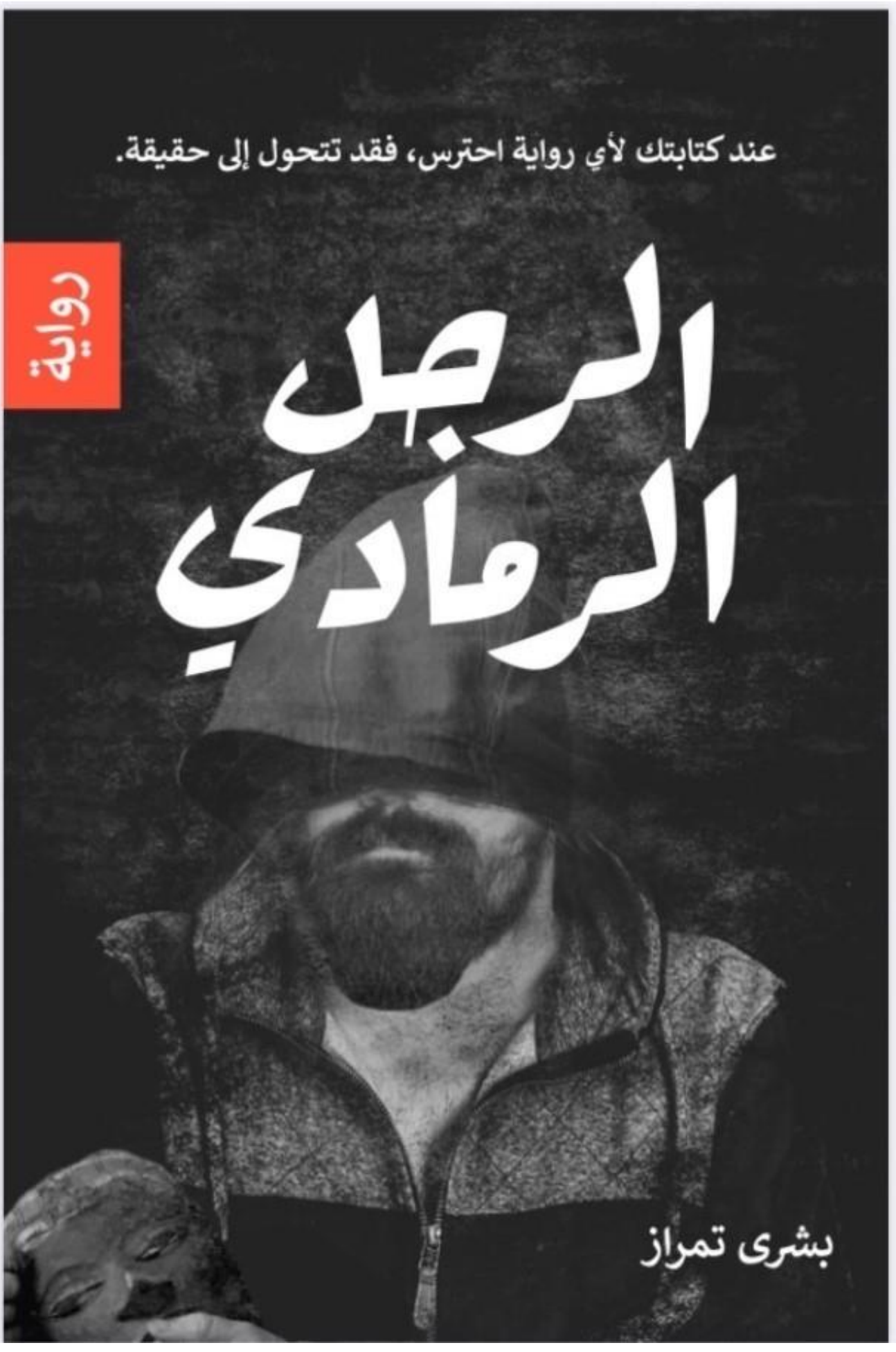
عند كتابتك لأيِ رواية احترس، فقد تتحول إلى حقيقة.
رواية
الرجل الرمادي
بشرى تمراز

الرجل الرمادي

عند كتابتك لأي رواية احترس، فقد تتحول إلى حقيقة.

الرجـل الرمـادي

بقلم بشرى تمراز

الفصل الأول

اســتيقظت على صــوت البروفيســور وهو يعلن انتهاء وقت الامتحان، نظرت إلى ورقتها فوجدت أن معظمها خالية، وعلى الهامش قد كتبت بضع كلمات متفرقات وخطوط وأسماء، ابتسمت نصف ابتسامة، ومن دون جدال سلمت ورقتها وخرجت.

لم تلق بالا لذلك البياض وإنما كل ما كان يهمها أنها وأخيرا قد وجدت تلك الحلقة المفقودة من روايتها...وجدتها على صفحات الامتحان.... ربما لتكون اللذة أكبر!!

استلقت على الســرير وابتسامة الرضا التي تسللت إلى شفتيها تحولت في لحظات إلى قهقهات عالية؛ فغدا ستذهب إلى دار النشر لتنشر روايتها، ربما لتبث الحياة في ذلك (الرجل الرمـادي).

****

لم يكن سوى رجلا في التاسعة والثلاثين، يمتلك دكانا لا تتسع سوى لكرسي- كان يسميه عرشا- ومكانا يكفي لوقوف زبون واحد فقط!

كانت تحاول تجنب الذهاب إلى ذلك الدكان بالرغم من أنه الأقرب إلى بيتها، كان هناك شيء ما فيه يبعدها عنه، ربما الحذر أو ربما الخوف.

ولكن في صـباح ذلك اليوم كانت على عجلة من أمرها للذهاب إلى دار النشـــر، فلم يكن أمامها خيار سـوى التعريـج على ذلك الدكان.

أثناء دخولها تساءلت "كيف يغلق هذا الرجل دكانه عندما يذهب وهي لا تملك بابا؟!"

كان هناك يجلس على (عرشه) يرشف قهوته الصباحية، وعقله قد انسلخ منه لدرجة أنه لم يلحظ وقوفها هناك.

أعادت ما قالته:

- **أريد ثلاثة أظرف كبيرة لو سمحت.**

ومن دون أن ينظر إليها أو ينطق بكلمة واحدة ناولها الأظرف البنية. أخذتها منه ثم سألته:

- كم الحساب؟

وأخيرا رفع رأسه ونظر إليها، وفي ثوان تغيرت ملامح وجهه وماتت الابتسامة على شفتيه حتى قبل أن تولد..

أما هي فقد أحسـت بأن التيار الكهربائي قد انقطع فجأة، وأن شـيئا ما بداخلها يدفعها للفرار؛ فملامح ذلك الرجل لم تكن مطمئنة أبدا. لم تنتظر لحظة أخرى ومن دون تفكير خرجت من ذلك الدكان (المرعب)، وحينها فقط عرفت سبب عدم وجود باب له، ربما لكي يتسنى للزبائن الهروب في جزء من الثانية!!

بعد مسـافة لا بأس بها جلسـت على أحد الأرصـفة لتلتقط أنفاسـها، وحينها أدركت أنها أوقعت الأظرف والراوية في ذلك الدكان المشؤوم.

لم تكن تعرف ماذا تفعل، هل تعود أدراجها وتستعيد تلك النسخ من روايتها أم لا؟

كان هناك شـيئا من الغموض يشـدها إلى ذلك الدكان، ولكن في نفس الوقت نبضـات قلبها لم تكن قد هدأت بعد، فعادت إلى المنزل، ولم تظن أنه في أي حال من الأحوال أن رواية من عشـرين فصلا قد تشد اهتمام (بائع خرف) في دكان رمادي متهالك!!

توقفت فجأة وكأن شعاع برق قد ضرب رأسها، وأخذت تردد (دكان رمادي)؟؟!!!!

****

لم تستطع في الأيام القليلة التالية الذهاب إلى دار النشر مرة أخرى نظرا لاقتراب موعد الامتحان الثاني.

ولكن بعد أسـبوع على تلك الحادثة وصـلها مغلف سـميك، وأول شيء لفت انتباهها أنه لم يكن هناك أية طوابع عليه، ففتحته بحذر شديد وكأنها تتوقع أن تجد قنبلة موقوتة بداخله!!

لم تتمالك نفسـها من الضـحك عندما رأت روايتها وتلك الأظرف البنية، ولكنها عندما رأت قصـاصـة الورق تلك تبلد كل شيء حتى عقارب الساعة!

((ذلك القدر لا يقوى عليه بشر... لم أكن أتوقع أن أجد نفسي على صفحات روايتك!))

كيف؟؟ ومتى؟؟ ولماذا؟؟ ومن؟؟! وهل..و...؟؟!!!

صداع شديد أخذها إلى شيء ما يشبه النوم.

أفاقت بعد وقت قصـــير، ألقت نظرة على تلك الأوراق والأظرف فوجدت أنها لاتزال تتربع على الطاولة، وكأنها بوجودها هناك تتحدى قواها العقلية!!

بعد أن احتســت فنجانين من القهوة الســوداء خرجت للتمتع بالهواء العليل علها بذلك تزيل آثار الصــداع وتمحو حلقات ذلك (المسـلسـل الدرامي) الذي تعيشـه، ولكن وفي أوج اندماجها بالتفكير والتحليل اصـطدمت بها سـيارة مسرعة، أو ربما لم تكن مسرعة ...ربما كل الذي حصل أن أفكارها هي التي اصطدمت بشيء ما أشبه بالواقع لتوقظها.

حينها سكنت كل الأصوات وانطفأت كل الأنوار، وربما وكرّد فعل عكسي عاد التيار الكهربائي ليعمل من جديد!!!

****

فتحت عينيها ببطء، لم تر شيئا سـوى الظلام، ولم تشـعر سـوى برائحة المخدر تتسـلل إلى أنفها، وبســـرير أبيض يحتله جسدها المنهك، فقد كان الألم يعتصر ذراعها اليمنى، وضجيج يدوي في رأسها.

بعد فترة سـمعت طرقا خفيفا على الباب ثم رأت رجلا لم تسـتطع تحديد هويته في وسـط العتمة، أشـعل الضـوء الخافت ثم اقترب من سريرها وسألها:

- كيف تشعرين الآن؟

لم تستطع تذكر أين رأت ذلك الخيال من قبل، لكن بعد لحظات استوعبت أن هذا الذي يقف أمامها هو ذلك البائع نفسه!

شعر باندهاشها وعدم ارتياحها، فقال لها:

- آسـف لما حصـل لك، كان يجدر بي الاهتمام بترتيب الكتب في الدكان أكثر، وإصـلاح ذلك الرف الخشـبي المكسـور، على كل حال أنا مستعد لدفع أي تعويض، وأكرر اعتذاري مرة أخرى.

حينها أيقنت وبلا شك أن هذا الإنسان مختل عقليا، فأي كتب هي التي يتحدث عنها وأي تعويض؟! و....!!

ثم لحظة، هو ما الذي جاء به...؟؟!!

- أنا لا أفهم شيئا..... كيف عرفت بأنني هنا؟!

ابتسم ابتسامة ذات معنى ثم قال لها:

- يبدو أنك متعبة الآن سنتحدث لاحقا.

- لا، أريد أن أعرف الآن ما الذي حصل.

ابتسم مرة أخرى ثم أجاب:

- اليوم صـــباحا عندما أتيت إلى دكاني، وقع عليك الرف العلوي مع كومة من الكتب والمجلدات الثقيلة التي كانت عليه، فأتيت بك إلى المشفى بعد أن فقدت الوعي، أنا آسف حقاً لذلك فقد كان يجب أن أصلح هذا الرف منذ مدة.

كانت تنظر إليه كطفلة غبية، كطفلة تســتمع إلى قصــة خرافية خيالية، كانت تتمنى أن تصـفعه عله يفيق ويخبرها بالحقيقة الأخرى، أليس هو الذي أعاد إليها روايتها؟؟! أولم يمض على ذهابها إلى ذلك الدكان أسبوع أو أكثر؟؟!

كانت لا تزال تحدق به ولكن هذه المرة من بين الدموع، فسألته بتردد:

- اليوم؟؟!

هز رأسه مؤكدا:

- نعم اليوم!!

كانت تشعر بالوحدة والاضطراب في تلك العتمة، لم تكن تريد سوى أن تصحو وأن تعرف الحقيقة.

ضغطت على الجرس فجاءت الممرضة على عجل، فسألتها بصوت مبحوح:

- اليوم.... ما هو التاريخ؟؟

وقفت الممرضة ككتلة بلا إدراك ربما من سذاجة السؤال أو ربما من صعوبته!!

أجابت بعد برهة:

- السادس عشر من كانون الأول.

حينها توقف كل شيء عن الحركة حتى دقات قلبها ربما توقفت للحظات، توقف كل شيء إلا عقارب الساعة الثائرة.

"أووه لا، ليس مجددا.... ليس مجددا أرجوكِ.."

أخفت رأسها تحت الغطاء وأجهشت بالبكاء كطفل صغير، فقد أدركت حينها أن تلك الحالة قد عاودتها مجددا ... حتى وهي في الغيبوبة لم تسلم منها!!

كانت تشعر بالإحباط وربما الجنون أيضا، فهل هناك إنسان طبيعي يعيش أحداث رواية قد كتبها؟؟!

لم يكن ســهلا أن تصــدق أن كل ما حدث كان مجرد حلم من نســج خيالها، لم تكن تتمنى حينها ســوى أن تكون شخصية من ورق على صفحات روايتها علها بذلك تستطيع العودة إلى ... إلى ذلك الرجل الرمادي!!

****

كانت من أكثر الحاضرين تحمسا، فقد كانت تنتظر ذلك الاحتفال بفارغ الصبر، ذلك الاحتفال الذي يضم عددا من الروائيين والكُتَاب المشهورين، لذلك حرصت على حضوره علها تتعرف على أشخاص قد يساعدونها في نشر روايتها.

لمحت من بعيد شبحا يشبه ذلك (البائع) ولكنها هزت رأسها ولو كان الأمر بيدها لصفعت نفسها لتبعد تلك الأفكار الغريبة عن مخيلتها الدرامية، فم الذي سيفعله بائع في مكان كهذا؟؟

في نهاية الاحتفال تم تكريم الكتاب والروائيين، كان التصفيق والتصفير عاليين، والصخب قد ملأ القاعة تشجيعا وتقديرا لهم.

ثم قام المقدم بتهدئة الحضور وقال:

- والآن يشرفنا أن يتقدم إلى المنصة ذلك الروائي المحبوب، ذلك الرجل الذي كسا الوقار اسمه وذاع سيط قلمه، نرحب بالكاتب المميز أسامة باكير.

حينها ازداد التصفيق حدة وحرارة، وفي خضم تلك الضجة العارمة، لم يُسمَع صوت ارتطام الكأس بالأرض وانكساره.

****

عادت إلى البيت بنسبة ٩٩,٩% وهي على يقين بأنها مجنونة ولم تبق سوى ٠,١% ، ربما (رفع عتب) كما يقولون!!

هل كان ذلك حقيقة أم حلقة أخرى من حلقات مخيلتها الدرامية؟؟!

هل ذلك البائع هو فعلا كاتب مشهور؟!؟! ثم لحظة، هو ماذا كان اسمه؟ كابير؟ باكر؟؟!! لا...لا، باكير..... ترى أين سمعت بهذا الاسم من قبل؟؟! وإن كان كذلك، فلماذا كاتب مرموق مثله لا يزال يعمل في دكان؟!!

أيمكن للصدف أن تكون بهذه الدقة بحيث أن مخيلتها قد تجسد لها بطل قصتها على أرض الواقع؟!

كان الغرق في النوم في تلك اللحظات هو أشد ما كانت تحتاج إليه فهو الشيء الوحيد الذي سينقذها من تلك العاصفة أو.....ربما سيقذفها إلى أخرى!

استيقظت في اليوم التالي وهي لا تريد مفارقة فراشها الأزرق الطري، كانت تشعر بشعور غريب صباح ذلك اليوم، فقد قررت أن تنسى كل شيء يتعلق بذلك الرجل حيث أقنعت نفسها بأن كل ذلك كان محض من الخيال وأن

التقائها به في ذلك الحفل لم يكن ســـوى امتداداً لأحلامها.... كيف ذلك؟؟!! لا تدري! ولم تجهد نفســـها باختلاق التفسير؛ فلم ترد أن تعرف كيف!! وقررت حينها أن تركز كل خلية عصبية في دماغها على العمل على روايتها.

ومن دون تفكير أخرجت تلك البطاقة من محفظتها واتصـــلت بالرقم المدون عليها، والذي كان يخص مدير دار النشـــــر الذي يدعى (حاتم التميمي)، كانت قد التقته يوم الاحتفال وبعد حديث قصـير دار بينهما قدم لها بطاقته لتتصل به للنظر في أمر روايتها.

لم تتلق أية إجابة من جانبه ففكرت بأنه إنسـان مشـغول حتما وأنها سـتعاود الاتصـال به لاحقا، فشـغلت نفسـها بتحضير طبق من الطعام ثم اتصلت بأهلها لتطمئن عليهم.

كانت عائلة رفيف تتكون من أربعة أشـخاص من دونها، هم: والدها، والدتها، شـقيقها (سـوار) الذي يكبرها بثلاث سنوات، وزوجة خالها (أم الوليد) التي انفصلت عن خالها منذ سنوات وكانت تقيم معهم.

كان بيتهم يقع في مدينة تدعى (قصـــترم)، والتي لم يكن فيها أية جامعات لذلك كان على رفيف أن تنتقل إلى المدينة المجاورة، مدينة (فنتيل)، لتدرس في إحدى جامعاتها، ولكنها كانت تقضي كل الإجازات في قصترم عند أهلها.

أما بقية أفراد العائلة- بمن فيهم خالها وابنه الوليد- فقد كانوا يقطنون في بلدة اسمها (تيكوبا).

كانت رفيف تحب زوجة خالها كثيرا ولم تكن تناديها سـوى (خالتي)، وكانت تحزن للوضـع الذي وصـلت إليه، فقد طلقها خالها بعد تسع سنوات من زواجهما، ولم يكتف بأن جرح كرامتها فقط وإنما حرمها من ابنها أيضا حيث سافر إلى تيكوبا وأخذه معه.

لم تكن تعلم لماذا تغير خالها فجأة وأصبح مجرد كتلة لا تمت للإنسانية بصلة، فقد كان يحب زوجته وكانا سعيدين معا ثم تضاعفت سعادتهما أكثر عندما رزقا بالوليد، لكن بعد عدة سنوات من ذلك تحول إلى وحش فأخذ يـضـربها ويسيـــء معاملتها إلى أن انتهت هذه الحكاية في تيكوبا. كان خالها في الفترة الأولى بعد الطلاق يأتي بالوليد بين فترة وأخرى لرؤية أمه، ولكن هذه الزيارات بدأت تخف تدريجيا إلى أن انقطعت نهائيا، ومنذ ذلك الحين لا يعلمون عنه شيئا وكلما سألوا أهلهم في تيكوبا لا يجدون الجواب الشافي، فمنهم من يقول بأنهما سافرا إلى بلدة أخرى، ومنهم من يقول إنه لا يزالا في تيكوبا ولكنهم لا يعلمون أين هما بالضبط.

لم تشهد رفيف شيئا من هذه القصة الحزينة سوى الفصول الأخيرة منها، فلازلت تتذكر تلك الأيام عندما كانت في الخامسـة، وكان الوليد و سـوار في الثامنة، حيث كانوا يلعبون دائما لعبتهم المفضـلة- لعبة القراصـنة- فكان الاثنان

يشــكلان حربا ضــدها، وبمجرد بدء اللعبة كانا يأسرانها و هكذا ينهون الحرب، فيقول الوليد جملته التي اعتاد قولها لرفيف بلهجة المنتصر:

- أنت دائماً تخسرين!!

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي رأت فيه خالها يدفع الوليد رغما عنه في الســيارة ويضــع الحقائب باليد الأخرى ويرحل حتى من دون أن ينظر إلى الخلف ومن دون أن تمس صرخات ابنه وزوجته شغاف قلبه.

ومن جهة أخرى فقد كانت أمها تعاني من (فشـل كلوي) حيث كانت تذهب ثلاث مرات كل أسـبوع للمشـفى للغسـيل الكلوي، فكان هذا مصدر قلق وحزن آخر في العائلة.

بعد أن أنهت مكالمتها مع والدتها، سرحت رفيف قليلا حتى وصل بها التفكير إلى الوليد فابتسمت وقالت:

- لا شك أنه أصبح رجلا الآن، كم أفتقده!

أفاقت من ذكرياتها وتأملاتها على صوت الأوراق تسقط على الأرض بحركة من يدها فنظرت إليها وقالت بتأفف:

- يا إلهي، لقد مللت من الدراسة!

اســتلقت قليلا لتريـح أعصــابها وتجدد خلايا دماغها لتبدأ بالمذاكرة، وهكذا قررت أن تؤجل موضــوع الرواية إلى ما بعد الامتحانات، حتى ذلك الطعام الذي أعدته أكلته بسرعة فائقة وهي تلملم أوراقها وتجهز دفاترها الجامعية.

مضت فترة الامتحانات ببطء شديد كانت تعتبره رفيف حائلا دون أعمالها الأدبية!!

قضـت بعد ذلك عطلتها مع أهلها في قصـترم وبعد أسـبوعين عادت إلى شـقتها في فنتيل للاسـتعداد للفصـل الدراسي الجديد.

بعد وصولها بأيام قليلة عاودت الاتصال بـ(التميمي) وما هي إلا عدة رنات حتى أجاب بصوت عميق:

- ألوو، حاتم التميمي يتحدث، تفضل.

- مرحبا ...أنا....

وهنا تلعثمت وغاب صوتها، فبلعت ريقها وقالت:

- مرحبا سيد حاتم، أنا رفيف، تلك الفتاة التي قابلتها قبل شهر تقريبا في حفل التكريم وقد أعطيتني بطاقتك لـ....

- أها ...نعم تذكرتك، أنت الفتاة صاحبة الرواية!

- نعم سيدي..

- **حسنا آنستي كيف أستطيع مساعدتك الآن؟!**
- **كما تعلم سيد حاتم فلقد انتهيت من كتابة الرواية وأتمنى أن تساعدني على تقييمها ونشرها.**

ضحك ضحكة ودودة ثم قال:

- **هل تستطيعين القدوم إلى مكتبي في مؤسسة الإعلام والثقافة؟ فهنا في هذا المبنى ستجدين كل شيء تحتاجينه ومن تحتاجينهم لمساعدتك.**

فقالت بلهفة وهي تحاول ضبط الابتسامة على شفتيها:

- **متى أستطيع المجيء؟**

أجاب وهو يدقق في جدول مواعيده:

- **غدا في الرابعة عصرا.**
- **هذا رائع!**
- **ولكن لم تخبريني ما هو عنوان روايتك؟؟!!**
- **الرجل الرمادي!**

****

الفصل الثاني

((محاضـــرة اليوم ســـتكون عن كيفية تنظيم القوائم المالية وطريقة تبويب المعاملات المالية وترتيب أجور الموظفين.....))

كان البروفيسور في عالم وهي في عالم آخر.... في العالم الرمادي.

كانت أشـبه بهؤلاء الذين يقال عنهم (الأطرش بالزفة) فلم تكن قد سـمعت شـيئا من المحاضرة ولم تكن قد دونت أي ملاحظات، ربما يمكننا القول إنها اعتادت على ((البياض))!!

كل ما كان يشـــغل تفكيرها في تلك اللحظة هو الموعد المرتقب في ذلك المبنى الســـحري الذي ســـتجد فيه كل ما تحتاجه لنشر روايتها، هذا ما قاله التميمي وهذا ما اعتقدته هي.

تنفست الصعداء وهي تخرج من القاعة فأخيرا أصبحت حرة طليقة تستطيع التحليق الآن إلى...

- **رفيف...رفيف..**
- **(أووه، يا إلـــهي) .....**

تنهدت بعمق، فمن دون أن تلتفت عرفت صاحب ذلك الصوت، إنه زميلها نزار، بالتأكيد جاء ليستعير دفترها لينقل شيئا فاته من الشرح، فحمدت الله أنها لم تكن قد دونت أي شيء.

كان نزار شابا في الرابعة والعشرين، طويلا، أسمرا، شعره أسود قصير، له عينين براقتين عسليتين، وأنف صغير حاد.

كان من النوع الذي يروق الفتيات ولكن ليس رفيف!

- **أنا آسف على الإزعاج، ولكنني كنت أتساءل إن كان بإمكاني استعارة...**

قاطعته وهي ترسم ابتسامة مصطنعة:

- **كنت أتمنى أن أساعدك ولكنني فعلا لم أكتب حرفا واحدا!**
- **رفيف، هل هناك خطب ما، فهذا ليس من عادتك!!**
- **لا، أنا بخير شكرا لك.**

ومن دون أن تنتظر ذهبت، ربما لتترك قلبا كسيرا يقبع هناك بسكون.

ركبت سيارة الأجرة الصفراء وطلبت من السائق أن يأخذها إلى مبنى الإعلام والثقافة.

أثناء الطريق أخذت تسترجع ما دار بينها وبين نزار قبل دقائق، لم تكن تعلم لم تتصـــرف معه بجفاء، لم تكن تعلم لماذا يوجد شيء ما يبعدها عن ذلك الشخص!

ولكن بالرغم من ذلك كانت تدرك بأنها أخطأت في حقه لذلك قررت أن تعتذر إليه في اليوم التالي وهذا ما جعلها تشعر بالراحة من جديد.

عندما وصلت وقفت قليلا لكي تضبط أنفاسها المتسارعة، وتمنت لو أنها تستطيع ضبط دقات قلبها أيضا!

دخلت المبنى بخطوات حاولت أن تجعلها ثابتة، ثم رفعت رأسها ونصبت قامتها، فهذه سياسة مهمة عندما تدخل مكانا ما لأول مرة ..... ولوحدك.

توجهت نحو الاسـتعلامات وسـألت عن (حاتم التميمي) فدلوها على مكان مكتبه. عندما وصـلت طرقت بابه الذي لم يكن مغلقا، فنظر إليها ثم ابتسم ووقف ليلقي التحية.

كان حاتم رجلا تجاوز الخمسين، قصير القامة، ممتلئا، ذو شعر أبيض يضفي عليه وقارا وهيبة.

تبادلا أطراف الحديث ثم أخذ منها الراوية ليقرأها على أن يتصل بها لاحقا، فشكرته وذهبت.

كل الذي كانت تفكر به في اليوم التالي هو الاعتذار إلى نزار، وهو ما كانت تبحث عنه إلى أن وجدته أخيرا يجلس على أحد المقاعد في (كافتيريا) الجامعة.

- **مرحبا نزار!**

عدَل طريقة جلوسه فور رؤيتها ثم أجابها والابتسامة تتراقص على شفتيه:

- **مرحبا رفيف!**
- **نزار أنا أعتذر عما بدر مني بالأمس، لم أكن أقصد أن أكون فظة معك.**
- **لا أبدا، فلم يحصل أي شيء ولا داعي للاعتذار، فأنا من يجب عليه الاعتذار لأنني أستمر في إزعاجك!**

ابتسمت ثم قالت:

- **حسنا، أراك لاحقا في المحاضرة.**

شعرت أن عبئا ثقيلا قد أزيـح عن ظهرها عندما أنهت تلك المهمة الصعبة، مهمة الاعتذار إلى نزار.....نزار الذي ستتمنى لو أنها لم تعرفه قط.

****

- **ما هذه؟!!**

سأل بنبرة حادة مندهشة.

- **رواية لطالبة جامعية!**

- **هل تعرف من هي؟؟!**

- **لا؟؟!!**

- **أرجوك قل شيئا.**

- **أسامة لماذا أنت مذهول؟! إنها مجرد رواية، اقرأها و إن كانت جيدة فوافق على نشرها!**

- **سيد حاتم أأنت متأكد بأنك لا تعرف الفتاة؟!**

- **قلت لك لا، ما هي مشكلتك؟**

- **لا شيء!**

عاش أحداث الرواية بتفاصيلها ، كان يشعر بتشابه كبير بينه وبين ذلك البطل الرمادي الذي ربما سرق شيئا ما منه، أو ربما كل شيء، لكن بالرغم من ذلك كان لرفيف أسلوب مميز ساحر يجرف القارئ ليستشعر كل حرف كتبته، ويخوض غمارا بين السطور، وقد استخدمت سلاح التشويق لتدفعه ليلتهم الفصول واحدا تلو الآخر.

قال في نفسه: يا لها من فتاة رائعة! ماذا كان اسمها؟؟!

فعاد إلى الصفحة الأولى و قرأ بصوت خافت:

- الرجل الرمادي..... بقلم رفيف اليمامي.

ثم ابتسم وقال:

- رفيف؟!! يا له من اسم طفولي!!

وفي ثوان اتصل بحاتم:

- هل اتصلت بك صاحبة الرواية؟!

- ليس بعد ولكنني أعتقد بأنها قد تفعل في أية لحظة.

- حسنا أخبرها بأنني سأساعدها على نشر روايتها ولكن بشرط واحد!

- ما هو؟؟!

- ستعرف لاحقا...فقط اعمل على إحضارها فتلك كاتبة تحتاج لمن يكتشفها!!

كادت تطير من الفرحة وهي في طريقها إلى المؤسسة فقد فكرت أنه وبما أنهم طلبوا منها الحضور فهذا يعني بأن أمورها قد سارت بشكل جيد وربما عما قريب ستقتحم روايتها المكتبات!!!

حياها حاتم بحرارة وطلب منها الانتظار إلى أن يأتي المسؤول عن النشر، وما هي إلا دقائق حتى وصل أسامة وألقى التحية.

كانت تجلس وظهرها باتجاه الباب، فوقفت ثم التفتت لترى ذلك الذي سيحقق حلمها ولكن عندما رأته انهار كل شيء. فغرت فاها وجحظت عيناها!! فلماذا هو؟؟! أولم نتفق أنه كان مجرد وهم وحلم؟؟!

هل هو شخص حقيقي يقف أمامها الآن أم أنه ربما أغمي عليها في الطريق، وهي الآن تعيش خيالاً آخرا ومسلسلا جديدا؟؟!

أما هو فقد تفاجأ قليلاً، أوليس هذه هي نفس الفتاة التي حملها إلى المشفى بعد أن فقدت الوعي في دكانه قبل فترة؟!

ساد صمتاً ثقيلاً غريباً، وشحنات كهربائية كانت تنبعث من كليهما فقد كانت هناك عيون حانقة وأخرى مندهشة!

قطع ذلك الصمت صوت حاتم بقوله:

- **سيد أسامة أعرفك بـ(رفيف) صاحبة الرواية.**

ثم التفت إلى رفيف وقال:

- **آنسة رفيف، هذا هو السيد أسامة الذي أخبرتك عنه.**

فرحب بها أسامة ولكنها لم تتفوه بكلمة واحدة، لم تعرف ماذا تقول أو ربما نسيت حينها كيف تتكلم!

تابع أسامة:

- **لقد قرأت روايتك والتي يمكننا القول بأنها أكثر من رائعة، فقد أثرت إعجابي بأسلوبك...**

هنا تحركت شفتيها المتصلبتين ببطء لترسم شيئا ما يشبه الابتسامة، لكن لثواني قليلة فقط، ثم عادت لتتصلب من جديد.

عاد الصمت ليخيم مرة أخرى، كانت تنظر إلى الأرض، أما أسامة فقد كان ينظر إليها باستغراب، وحاتم كان ينظر إلى أسامة بريبة!

وعلى حين غفلة سألته وهي على وشك البكاء:

- هل أنت فعلا كاتب؟!

كاد ينفجر ضاحكا لسؤالها الساذج وربما الغبي، ولكنه أدرك بأنه لا يجب أن يفعل ذلك، فأجاب مسايرا لها:

- **إن أردتِ فأنا كذلك.**
- **وهل أنت بائع؟!!**
- **مممم.... نعم!!**
- **هل أنت الـر...**
- **ماذا؟!**
- **لا شيء، انس الأمر!**

هنا بدأ القلق يساوره لشيئين، أولا لأن وجهها كان يزداد اصفرارا، وثانيا لكثرة أسئلتها ونبرة الخوف في صوتها!

- **آنسة رفيف هل هناك خطب ما؟؟!**

جالت بنظرها عليه وكأنها تريد أن تحفظ جميع تفاصيله لتقارن بينه وبين الشخصية التي رأتها في حلمها وخيالها.

كان أسامة طويلا وعريض المنكبين، ذو شعر أسود قصير، وبشـــرة حنطية تميل إلى السمرة، أما عيناه فقد كانتا واسعتين برموش سوداء طويلة، وبريق فيهما يخفي لونهما، وحاجباه كانا مستقيمان ومنخفضان ليشكلا إطارا رائعا لعينيه، أما أنفه فقد كان صغيرا مستقيما، وأكثر ما يميزه تلك اللحية الطويلة التي غطت ذقنه الحاد لتعطيه جاذبية كبيرة، شعرت بأنه مألوف وبأنها تعرفه منذ زمن!!

سعل وكأنه يريد أن يوقظها من..... لا يدري من ماذا، أما هي فقد كست الحمرة وجهها ونبضات قلبها تسارعت فقد استوعبت بأنها كانت تحدق فيه ربما لأكثر من دقيقتين!!

فأرادت أن تغير الموضوع فقالت بصوت رقيق:

- **حسنا، بالنسبة للرواية ، ماذا حصل؟!**
- **قبل أي شيء أريد أن أسألك سؤالا، هل عنيت شخصا ما بروايتك، أم أنها من نسج خيالك و أقصد بهذا الأشخاص؟؟**
- **لا، إنها من وحي خيالي.... لماذا؟**
- **آنسة رفيف لقد أعجبتني روايتك كما أخبرتك، ولكن..... ؟؟!**

- ماذا؟!
- أنا على استعداد على نشـــــرها والعمل على رعايتك أدبيا لتصبحي في يوم ما كاتبة معروفة، فأنت تمتلكين موهبة رائعة، ولكن هناك مشكلة صغيرة في الرواية وهي العنوان...!!
- العنوان؟؟!!
- أنا مستعد لنشر روايتك ولكن بشرط أن تغيري العنوان!
- ولكن لماذا؟؟! أنا لا أفهم شيئا!

وهنا تدخل حاتم التميمي مستنكرا:

- أسامة ماذا تقول؟!
- أرجوك سيد حاتم هذا شرطي، وكما تعلم أنني أنا المسؤول عن النشر!

فقالت رفيف بانفعال:

- حسنا سيد أسامة أشكرك على مساعدتك، ولكنني أفضل أن أحتفظ بروايتي كما هي في عتمة درج الطاولة على أن أنشرها بالتعديلات التي ستجريها أنت!

ثم نظرت إلى حاتم وقالت:

- أشكرك سيدي على مساعدتك لي.

ومن دون أن تنتظر خرجت كما دخلت بخطوات ثابتة مرفوعة الرأس، ولكن هذه المرة بقلب كسير.

****

كان يشـعر بأنانية كبيرة لأنه لم يوافق على نشـــــر رواية تلك الفتاة، ربما لأنه كان يشـعر بالغيرة من ذلك البطل....

الرجل الرمادي!!!

قطع حبل أفكاره صوت طفولي يناديه، فقام على عجل إليها.

- أبي لا أستطيع النوم.

ضمها إلى صدره وقبلها ثم قال لها:

- **سأقص عليك حكاية وأبقى بجانبك إلى أن تنامي، اتفقنا؟!**

ابتسمت ثم قالت له:

- **أحبك أبي.**

مسح على شعرها وقال لها:

- **وأنا أحبك صغيرتي.**

كانت ريم تبلغ الرابعة من العمر، لم تكن تشبهه أبدا، فقد كانت ذات شعر بني ناعم وعينين عسليتين واسعتين وأنف صغير وبشرة بيضاء ربما كبياض الثلج، على الأقل في نظره هو.

كانت تسأل عن أمها كثيرا كـ (أين أمي؟) أو (لماذا ليس لي أم تأتي لتأخذني من الحضانة؟؟!) وعلى هذا المنوال، خاصة إذا غضبت من أسامة أو انشغل عنها. لكنه لاحظ في الآونة الأخيرة أنها بدأت تهدأ وأنها لم تعد تذكر شيئا يتعلق بهذا الموضوع خلال الفترة الأخيرة، وهذا ما أراحه قليلا.

جاء صوت ريم مزعجا وهي توقظه في الصباح:

- **أبي.... أبي هيا استيقظ.**

- **حسنا رياني، الآن يا حبيبتي.**

كان النوم يثقل عينيه فلم يكن قد نام سوى ثلاث ساعات الليلة الماضية فغرق في النوم من جديد دون أن تخترق نداءات ابنته الغاضبة أذنيه!

استيقظ ظهرا، وعندما رأى ريم تنام بجانبه بهدوء أدرك أنه لم يذهب إلى العمل وأنه لم يوصلها إلى الحضانة، وهذا ما سيدخله في مشكلة معها عندما تستيقظ، فهدوؤها هذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

****

كانت رفيف قد توسدت سريرها، ولكنها لم تبك بالرغم من رغبتها الشديدة في ذلك، فقد أيقنت حينها بأن ما رأته في غيبوبتها حدث فعلا وكأنها تنبأت بالذي سيحصل !! فلماذا هذا الشخص بالذات؟! لم تشأ أن تؤلم رأسها بهذا الموضوع، وحاولت قدر الإمكان أن تتقبله كما هو، ولكنها رجت الله بأن لا تتكرر هذه الحالة مرة أخرى وإلا فإنها ستصاب بالجنون حتما!

كان هناك شيء آخر يحزنها وهو بالتأكيد ما حصـل في مكتب حاتم فأمسـكت الرواية ووضـعتها في الدرج، ثم قررت أن تنسـاها لفترة وتلتفت إلى دراسـتها التي أهملتها في الفترة الأخيرة فقد كان نزار محقا؛ فهي لم تعد تدون أي شيء في المحاضرة لأنها ببسـاطة لا تسـتمع إلى أي شيء منها، وهنا قررت على مضـض أن تسـتعير من نزار دفتره لتنقل كل ما فاتها، وهذا ما حصل.

بعد عدة أيام قرأت إعلانا لدار نشر، ففكرت بأن مصير روايتها لا يتعلق بموافقة ذلك المتعجرف أسامة، وأنها ورغما عنه ستقوم بنشرها، وأصبح هدفها أن تشعره بالغيظ فقط، وهكذا قررت رفيف خوض معركة ضد أسامة باكير!!

بعد أيام قليلة رأته وهي في طريق عودتها من الجامعة في الشارع المؤدي إلى بيتها وإلى دكانه، كان يرتدي سترة سوداء وبنطالا زيتيا، ويمسك بيد طفلة، تساءلت:

- ترى من تكون هذه الفتاة الصغيرة؟؟! أمن الممكن أن تكون ابنته؟؟!!

لا تدري لم أرعبتها فكرة كونه متزوجا ولديه طفلة أيضا!! ارتبكت وحاولت أو بالأحرى تعمدت تجنبه وعدم النظر إليه، إلا أنه وقبل أن يتقاطعا نادى عليها:

- آنسة رفيف؟!

التفتت إليه ورسمت علامات الدهشة المصطنعة على وجهها وكأنها لم تكن قد انتبهت لوجوده!!

- سيد باكير!!
- كيف حالك آنسة رفيف؟
- بخير، شكرا لك!
- أنا آسف فعلا لما حصل في ذلك اليوم ولكن...

ابتسمت ابتسامة خبيثة تدل على نواياها الشريرة، ثم قالت:

- لا مشكلة لم يحصل شيء!

ثم قالت لتغير الموضوع:

- هل هذه أختك الصغيرة؟؟!

كان لا بد أن تلعب دور الساذجة وإلا فإنها لن تعرف ما تريد!

ضحك ضحكة عذبة ثم أجاب:

- لا هذه ابنتي...ريم.

ثم نظر إلى ابنته وقال لها:

- ريامي حبيبتي.. ألقي التحية علي الآنسة رفيف.

لم تشأ أن تظهر ذلك الارتجاف الذي أصابها فلم تنتظر مبادرة الصغيرة وإنما انحنت أمام الصغيرة وقبلتها ثم قالت لها:

- كيف حالك ريم؟!

ابتسمت الفتاة وهي تلتصق بأسامة باستحياء.

- لم أكن أعلم أنك متزوج!!

نظر إلى ابنته ثم حوَل نظره إليها، وهناك استقرت عيناه على عينيها الزرقاوين، وعلى شعرها الكستنائي الذي كان يتطاير مع الهواء كالحرير.

شعرت بالإحراج قليلا فقالت:

- يجب أن أذهب الآن.

وكعادتها ومن دون أن تنتظر أدارت وجهها وهمت بالذهاب وقلبها ينتفض، وغصة في حلقها تكاد تخنقها، لماذا؟ لم تكن تدري! ولكن قبل أن تخطو خطوتها الثانية سألها:

- هل تسكنين بالقرب من هنا؟؟!

التفتت إليه وحاولت أن ترد عليه إلا أنها لم تستطع، فإن فتحت فمها بكلمة واحدة فقط ستبدأ دموعها بالانهمار.

ساد الصمت للحظات، صمتا لم يكن ذا مغزى باعتقاده فقال:

- آسف لم أقصد التطفل!

ثم مد يده إلى جيبه وأخرج بطاقته ودفعها إليها، أخذتها منه وللمرة الأولى ابتسمت له ابتسامة ودودة صادقة ثم ذهبت.

قضى ظهر ذلك اليوم في دكانه بعد أن أوصل ريم إلى الحضانة، وكعادته جلس على عرشه يدخن سيجارة، ولكن هذه المرة تراءى له طيف رفيف من خلال دخانها المتصاعد، لم يكن يعلم لم تستحوذ هذه الفتاة على تفكيره، ولم كل ما حاول أن يبعدها عن مخيلته تظهر له فجأة!

أما رفيف فقد عادت إلى البيت بخطى متعثرة والدموع تحتل عينيها فأخذت تخاطب نفسها:

- **ما الذي يحصل معي؟ لماذا لم يبق هذا الإنسان مجرد حلم أو شخصية على الورق؟؟**

****

الفصل الثالث

استيقظت على صوت هاتفها النقال وهو يطلق تلك الموسيقى التي تعشقها، ولكن وبدلا من أن تجيب أمسكت الهاتف واحتضنته ثم غرقت في النوم مرة أخرى.

بعد ساعة استيقظت مذعورة وكأن شيئا ما فاتها، أو كأنها كانت تخشى أن يأتي أحد ويراها وهي نائمة!!

فنهضت وغسلت وجهها وأعدت كوبا من القهوة لتشربه قبل أن تبدأ مذاكرة، ولكن بعد ثوان رن هاتفها مرة أخرى فتذكرت أن هذه ليست المرة الأولى التي يرن فيها، فشعرت بالضيق لأنها كلما أرادت أن تقرأ حرفا من دفتر نزار يحصل شيء ما يثنيها عن ذلك ، فقالت بغضب:

- **يا إلهي متى سيقدر لي أن أبدأ بالمذاكرة؟!**

ثم بكل برود أمسكت الهاتف الذي كاد ينفجر رنينا و من دون أن ترى الرقم ضغط على الزر لتجيب:

- **مرحبا آنسة رفيف كيف حالك؟!**
- **بخير....**
- **أنا حاتم التميمي من مؤسسة الإعلام!**

ثم ضحك ضحكة مترددة، أما هي فقد تفاجأت فما الذي يريده منها؟! فقالت بعد برهة بنبرة جافة:

- **سيد حاتم!!! كيف حالك؟**
- **أنا بخير... آنسة رفيف هناك موضوع أود التحدث معك فيه؟**
- **أنا أسمعك تفضل.**
- **حسنا... لقد طلب مني السيد أسامة أن أتصل بك لـ..**

وهنا ازداد خفقان قلبها، ولا شعوريا سألته بنبرة هجومية:

- لماذا؟؟!!

- أعلم آنستي أنك غاضبة مما حدث ذلك اليوم لهذا طلب مني أسامة أن أخبرك بأنه قد تراجع عن شرطه، وأنه وبعد موافقتك سيتكفل بنشر روايتك كما تريدين!!

أرادت أن تضحك وأن تبكي وأن تصرخ في نفس الوقت، لماذا؟! فلماذا يفعل هذا، ولماذا تراجع عن قراره؟؟

لم تكن تعلم بم تجيب فقد كان هناك صراعا داخلها يكاد يمزقها، فهي تريد أن تنشر روايتها، ولكنها تريد أيضا أن تحفظ كرامتها وفي نفس الوقت تريد إغاظة باكير.

قطع ذلك السكون صوت حاتم:

- خذي وقتك وفكري على مهل وبعد ذلك...

لكنها قاطعته قائلة:

- لا ...لا داعي لذلك فقد اتخذت قراري.

****

- أهذا ما قالته؟؟! لا أصدق!!
- أنا آسف أسامة، ولكنها رفضت عرضك!
- هل ذكرت سبب رفضها؟؟
- قالت بأنها تواصلت مع دار نشر أخرى وعما قريب ستوقع العقد معهم.
- بهذه السرعة؟!!
- ثم طلبت مني أن أشكرك.
- يجدر بها أن تفعل ذلك!!

قالها بحنق ثم أغلق الهاتف، كان يشعر بالغيظ الشديد ولو كانت أمامه لربما صفعها!!

- لماذا ترفض عرضي؟؟ أنا المخطئ ما كان يجدر بي فعل هذا ثم لماذا أنا مهتم لأمرها؟؟؟! فلتفعل ما تشاء!!

أما هي فقد كانت تشعر بنشوة الانتصار وبمرارة الفشل معا، فقد أضاعت هذه الفرصة الذهبية التي لن تتكرر مرة أخرى في سبيل كرامتها ولإغاظة أسامة!

أخذت تحدث نفسها بأسى:

- ترى هل سأحظى بفرصة أخرى لنشر روايتي أم أنه إما الكرامة أو الرواية؟؟!!

هزت رأسها وابتسمت ابتسامة واهية لتواسي نفسها ثم بدأت المذاكرة!

نســـيت كل شيء يتعلق بأســـامة وبالرواية وهي تلتهم دفتر نزار التهاما، فقد كان عليها أن تعوض كل ما فاتها من الدروس وأيضا كان لا بد أن تعيد لنزار دفتره الذي احتجزته ليومين!!

انتهت في ســـاعة متأخرة تلك الليلة فأغلقت دفترها وأخذت تقلب دفتر نزار بسرـــعة لتتأكد بأنها لم تنس شـــيئا، وعندما اطمأنت بأنها نقلت كل شيء أغلقته وأخذت ترتب طاولتها وأوراقها فقد كانت تكره الفوضى.

بعد ســاعات من التقلب في السريـر ودوامات من الأفكار، نامت بصـعوبة، لذلك كان شـيئا متوقعا أن تبقى نائمة إلى ظهر اليوم التالي فاستيقظت وقالت مؤنبه نفسها:

- **إلى متى ستستمر هذه الحال؟؟!! أما يكفي إهمالاً؟!**

فقررت أن تعاقب نفســها وتذهب إلى الجامعة بالرغم من أن محاضراتها كانت قد انتهت ولكنها كانت على يقين بأنها ستجد نزار هناك عله يساعدها فيما فاتها اليوم أيضا.

سلكت طريقا آخر غير ذلك المؤدي إلى دكان أسامة فقد قررت أن تخرجه من حياتها إلى الأبد.

وصلت إلى الجامعة واتجهت إلى الكافتيريا لتقابل نزار، وهناك وجدته جالسا على مقعده المعتاد يتصفح أوراقه.

- مرحبا نزار!

نظر إليها بعينيه البراقتين وابتسم ابتسامة رائعة وقال:

- **أهلا أهلا رفيف، أين أنت يا فتاة؟؟!**
- **أنا هنا، ما زلت على الكرة الأرضية!!**

ثم ضحكا هما الاثنين معا.

- **نزار؟؟!!**

نظر إليها بجدية وكأنه يتوقع بأنها ستخبره سرا خطيرا!!

- **نزار، هل تستطيع شرح محاضرة اليوم لي؟!**

أخفض رأسه وابتسم وكأن أمله قد خاب، ثم نظر إليها وقال:

- **بالتأكيد، هذا من دواع سروري.**

ثم أعطته دفتره وقالت:

- **شكراً لك على هذا أيضا.**

أمضيا ثلاث ساعات معا، عمل نزار خلالها على شرح كل شيء لها، ثم أمضيا بعض الوقت في الحديث عن نفسيهما، لم تكن رفيف تعلم لم شعرت وللمرة الأولى بالراحة والسعادة معه بعد أن كانت تنفر منه.

ارتشفت آخر ما تبقى من القهوة في كوبها، ثم نظرت إليه وقالت وهي تنهض:

- أشكرك كثيرا.
- على الرحب والسعة، ولكن أتمنى ألا تتغيبي بعد اليوم عن المحاضرات لأننا.....نفتقدك!

احمرت وجنتاها ومن دون أن تنتظر انسحبت بهدوء!

****

- ألو، مرحبا أسامة.
- أهلا نزار كيف حالك؟
- بخير، أين أنت؟
- في الدكان، هل هناك خطب ما؟!
- لا، لكنني أريد أن أتحدث معك في موضوع.
- حسنا، لكن تعال بسرعة فيجب عليَ أن أذهب لإحضار ريامي من الحضانة بعد نصف ساعة.
- لا تقلق سأحضرها أنا ثم نأتي إليك، اتفقنا؟!
- حسنا أخي أراك إذا.

عندما رأت ريم نزار ركضت نحوه وصاحت بمرح:

- عمي نزار!!

أخذها بين ذراعيه وأخذ يؤرجحها في الهواء هي تضحك بلا توقف، ثم سألته:

- هل سنذهب إلى الدكان؟
- يا لك من فتاة ذكية!

عند وصولهما، فتح أسامة ذراعيه لاستقبال ريم ثم قال:

- مرحبا نزار، (نورت الدكان)، كيف حالك؟

ابتسم نزار ثم أجاب:

- **بخير ما دامت الامتحانات قد انتهت، ولدينا يومين إجازة!**

ضحك أسامة وأجاب:

- **لا تقلق فلم يبق سوى عام واحد للتخرج وبعدها تصبح المحاسب نزار، وتنتهي كل الامتحانات!**

تنهد نزار براحة ثم قال بمرح:

- **لا أستطيع الانتظار أكثر!**

ثم سأله أسامة:

- **وكيف حال عمتي وفاء؟**
- **بخير، ولكنها تؤنبني أحيانا لأننا نتركها وحدها، فأقترح عليها بأن تذهب لقضاء بعض الوقت معكم عندما أكون أنا في الكلية، ولكنها تقول لي بأنكم أنتم أيضا مشغولون، فأنت في عملك، وريم في الحضانة!**
- **يا لعمتي المسكينة، كم نحن مقصرون اتجاهها، فجميعنا نسكن في نفس البناء وبالرغم من ذلك لا نعتني بها كما يجب.**

تنهد نزار ثم قال:

- **معك حق، وليس هذا فقط بل الشقتان متقابلتان أيضا.**

ثم ضحك الاثنان، فقالت ريم:

- **دعونا نذهب لقضاء هذا المساء مع جدتي وفاء ونأخذ لها الحلوى!**
- **بالتأكيد يا حلوتي، سنذهب مع نزار اليوم.**

ثم نظر إلى نزار وقال له:

- **حسنا نزار ما هو الموضوع الذي كنت تريد أن تخبرني به.**

نظر نزار إلى أسامة ثم إلى ريم ثم إلى أسامة مرة أخرى، فسعل أسامة إشارة إلى أنه فهم الرسالة فقال:

- **دعونا نذهب إلى البيت الآن لنتناول الغداء.**

بعد وجبة الغداء نامت ريم فخلا الجو لهما، فقال أسامة:

- **أقلقتني بما يكفي، هات ما عندك.**

ضحك نزار ثم قال:

- لا تقلق ليس بالأمر الخطير على الأقل بالنسبة لك!

ثم صمت، ولكن عضلة فكه كانت تتحرك بعنف، فنظر إليه أسامة بصبر نافذ، فبدأ نزار قائلا:

- أنا ...

- نعم...أنت ماذا؟؟!!

- أعتقد بأنني أحب فتاة معي في الكلية!

حينها انفجر أسامة ضاحكا حتى احمر وجهه، ثم قال:

- أنا آسف لم أقصد الاستهزاء، ولكنك ضخمت الموضوع كثيرا يا أخي، فما المشكلة في ذلك؟

- أعتقد بأنها لا تحبني!

- هل قالت ذلك؟

- لا!

- هل صارحتها بمشاعرك؟

- لا!

- إذا ماذا تنتظر؟؟

- لا أدري!

- نزار، لا تتخيل أنه في يوم من الأيام بأنها ستأتي إليك وتقول لك بأنها معجبة بك إن لم تبادر أنت أولا، فهؤلاء النساء كرامتهن فوق كل شيء.

- أعلم ذلك، لكنني أعلم بأنها لا تحبني وأنها تعتبرني مجرد صديق.

شعر أسامة بحزن أخيه فأراد أن يلطف الجو فقال مازحا:

- حسنا روميو، لم تخبرنا باسم الحسناء التي سلبت لبك!

ابتسم نزار ثم أجاب ببساطة:

- جولييت!!

****

قررت رفيف بأن تقضي يومي الإجازة في قصترم فقد اشتاقت لأهلها وخاصة لأمها، ولكنها عزمت على ألا تخبرهم بمجيئها لتكون مفاجأة لهم.

أغلقت حقيبتها وارتدت معطفها الأسود ثم تفقدت شقتها بسرعة حيث أغلقت الأضواء وأجهزة التدفئة، بعدها خرجت وأغلقت باب الشقة، ولكنها وقبل أن تنزل على السلالم عادت لتتأكد بأنه مغلق جيدا، ربما يمكننا القول بأنها كانت تعاني من الوسواس القهري!!

كانت صديقتها رجاء تسكن في نفس البناء معها هي وجدتها عفاف، فعرجت عليها لتسلم عليهما قبل رحيلها.

تأخرت سيارة السيارة الأجرة كثيرا بالرغم من أنها كانت قد اتصلت بالسائق قبل نصف ساعة، وحيث أن الجو في الخارج كان باردا جدا لم تستطع تحمل الوقوف أكثر، فقالت بحنق والبخار يتدفق من فمها:

- يا ترى لماذا تأخر!

وضعت حقيبتها على الأرض وأخذت تتمشى في الشارع ذهابا وإيابا علَها تدخل الدفء إلى جسدها، وبينما هي كذلك رأت أسامة يخرج من دكانه ويستقل سيارته ويذهب، فقالت وهي تنظر إلى السيارة المبتعدة بأسى:

- أتمنى أن يكون اليوم الذي سأمتلك فيه سيارة قريبا جدا!

أخرجت هاتفها من حقيبة يدها وكانت على وشك الاتصال بالسائق إلا أن صوت سيارة مسرعة أفزعها، فاستغربت عندما رأت أن تلك السيارة لم تكن سوى سيارة أسامة السوداء تعود إلى الخلف لتقف أمامها، ثم فتح أسامة النافذة وقال:

- آنسة رفيف!!

تبلدت ولم تدر مم، أمن البرد أم من رؤيتها لأسامة! فقالت بعد برهة وأسنانها تصطك من البرد:

- مررررحبا سيد أسامة!

خرج من السيارة ووقف بالقرب منها ثم سألها:

- ماذا تفعلين في الخارج في مثل هذا الجو البارد؟!

- أنتظر سيارة السيارة الأجرة!

- إذا أنت تقيمين هنا؟؟

وأشار إلى البناء التي كانت تقف أمامها.

- نعم.

ثم سألته بشكل آلي:

- وأنت؟

أشار إلى البناء الأبيض والذي كان بإمكانهم رؤيته بوضوح، وقال:

- هناك، ليس بعيداً من هنا.

فقالت رفيف لنفسها: (أعتقد بأنها نفس البناء الذي يقيم فيه نزار!! يا للصدفة!)

- لا أقصد التطفل، ولكن هل لي أن أسأل إلى أين تذهبين؟

- إلى قصترم!!

ابتسم وقال بدهشة:

- حقاً! يا لك من فتاة مغامرة فهي بعيدة بعض الشيء من هنا!

- لا، لست مغامرة فقد اعتدت على الأمر، فأنا غالبا ما أذهب هناك لزيارة عائلتي.

ارتبكت من أسئلته فقررت أن تدير دفة الحديث فقالت:

- كيف حال ريم؟!

- بخير إنها في الحضانة، كنت ذاهبا لإحضارها ولكنني رأيتك تقفين هنا لوحدك فعدت للاطمئنان عليك!

قالت لنفسها: أي جرأة يتصف بها هذا الإنسان، فابتسمت باستهزاء وقالت:

- شكرا لك.

ثم سألها سؤالا يكاد يقتله:

- آنسة رفيف، من هو الرجل الرمادي؟!

نظرت إليه بسذاجة وقبل أن تجيب ببساطة (إنه بطل روايتي)، وصلت سيارة السيارة الأجرة، فتنهدت بعمق وقالت:

- وأخيرا.

ساعدها أسامة في وضع حقيبتها داخل السيارة، ثم سألها:

- هل ستمكثين في قصترم طويلا؟

شعرت بنشوة فقد أحست بأنه مهتم لأمرها لذلك أرادت أن تتلذذ بهذا الشعور، فكما يقولون إن كيدهن عظيم، فأجابت بابتسامة عذبة:

- لا أدري!!

ثم ركبت سيارة السيارة الأجرة وأمرته بالانطلاق وهي تلوح لأسامة والسعادة تغمرها وقد نسيت تهديدها ووعيدها للسائق!!

أما أسامة فقد بقي واقفا يراقب السيارة إلى أن اختفت عن ناظريه، ثم قال مخاطبا نفسه:

- لا أدري حتى الآن لم عدت إليها، أما كان يجدر بي تجاهلها؟؟! ألم ترفض عرضي؟؟! يا لي من أحمق!!

هز رأسه وكأنه يحاول أن يمحو الحماقة التي ارتكبها، ثم ركب سيارته واتجه إلى الحضانة ليأخذ ابنته، ثم ليذهبوا لزيارة العمة وفاء.

أما رفيف فقد وصلت قبل أن يحل الظلام، فأنزلت حقيبتها ودفعت للسائق أجره ثم توجهت نحو البيت.

ضغطت على جرس الباب وما هي إلا ثوان حتى أطل سوار فصاح:

- رفيف، يا لها من مفاجأة؟؟!

احتضنته بشوق ثم غمزته وأشار له بإصبعها على فمه ليلتزم الصمت، ثم دخلت بهدوء لتفاجأ والديها.

بعد اللقاء الحار جلسوا جميعا في الصالة يتبادلون أطراف الحديث ويحتسون الشاي، فسألتها والدتها:

- كم يوما ستقضين معنا يا بنتي؟

كانت تعلم رفيف بأنها ستخيب أمل أهلها لأنها لن تطيل البقاء عندهم، خاصة أمها وخالتها اللتين كانتا تقضيان معظم اليوم لوحدهما في البيت، فقالت بتمهل:

- أخشى بأنني سأغادر غدا يا أمي!

قال الجميع بصوت واحد:

- مـاذا؟؟!

- نعم، فكما تعلمون فقد أنهيت امتحانات نصف الفصل البارحة وقد أعطونا إجازة ليومين فقط لذلك علي أن أغادر غدا.

ثم أضافت محاولة أن تلطف الجو:

- لكنني سأغادر مساء، أي أنني سأقضي يوم غد كاملا معكم.

ابتسم والدها وقال:

- **بالتوفيق يا بنتي.**

ثم لتغير الموضوع نظرت إلى سوار وسألته:

- **كيف عملك يا أخي؟**
- **ممتاز، فالشهر الماضي حصلت على علاوة.**
- **هذا خبر رائع!**

ثم سألها:

- **وأنت ما هي أخبارك؟**
- **لا شيء جديد.**
- **أحقا؟**

لا تدري لم شعرت بأن قلبها قد قفز من مكانه عندما شكك أخوها بكلامها فابتسمت نصف ابتسامة وقالت:

- **فعلا!!**
- **وماذا حصل بروايتك، لقد قلت في المرة الماضية أن هناك من سيساعدك على نشرها.**

شعرت برعشة في جسدها فهي أتت إلى البيت لتنسى وها هو ذا يذكرها بكل شيء فأجابته باقتضاب:

- **أجلت كل شيء بسبب الامتحانات، ولكنني لن أنشرها في فنتيل، سأتصل غدا صباحا بدور النشر المدونة على دليل الهاتف وأبدأ بالعمل.**

وفعلا في صباح اليوم الثاني استيقظت رفيف باكرا جدا، شربت كوبا من القهوة مع قطعة من الشوكولاتة الداكنة، ومن ثم عكفت على دليل الهاتف لتدون أرقام دور النشر في قصترم.

بعد ساعتين من العمل والبحث، خرجت رفيف بثلاث دور نشر، ولكنها أصرت على أن تضيق دائرة البحث أكثر لتستغل الوقت!

استيقظ الجميع بعد ذلك وتناولت الفطور معهم وبعد أن انتهوا قالت لسوار:

- **هل تذهب معي؟**
- **إلى...؟!**

- **دار النشر! فقد وجدت بدليل الهاتف ثلاثة، ولكنني اخترت واحدة فقط، فاتصلت بهم وأخذت العنوان.**

وما هي إلا دقائق حتى كان الاثنين في السيارة فابتسمت رفيف وقالت:

- **أووووه.... متى سأحظى بسيارة أنا أيضا؟؟!**

ضحك سوار ثم قال ليغيظها:

- **مازلت صغيرة على مثل هذه الأحلام!!**

وصلا إلى دار نشر والتي كانت تدعى (دار الكتاب للنشر والتوزيع) حيث شرحت لهم رفيف المطلوب، فأخذوا روايتها على أن يتصلوا بها بعد أسبوعين.

عادت هي وشقيقها إلى البيت لتمضي ما تبقى من اليوم مع عائلتها ثم عندما حل المساء حان وقت مغادرتها، وضعت حقيبتها على الباب واصطف الجميع ليودعوها، ثم احتضنت رفيف والدتها وقالت لها:

- **اعتن بصحتك جيدا.**

****

الفصل الرابع

- **ماذا بك يا أسامة؟**
- **لا شيء، لماذا؟!!**
- **لأنك لم تنطق بحرف واحد منذ مجيئك!! هل هذا سببا كافيا؟!**
- **ربما!**
- **هيا ماذا حصل؟**
- **آه يا نزار ربما تكون قد نقلت لي العدوى!!**
- **عدوى ماذا يا رجل؟!**

ضحك أسامة ضحكة يشوبها الحزن ثم قال:

- **عدوى الحب!!**

صفق نزار بحدة وهو يضحك، فذهب وجلس بجانب أسامة ثم سأله:

- **أحـقا؟؟!**
- **هل تراني في وضع يسمح بالمزاح؟؟!**
- **لا أدري، فربما يكون هذا واحدا من مقالبك المعتادة!**
- **لا ...إنها حقيقة!!**
- **أهـا .... وبعد!**
- **لا أدري!!**
- **وهي؟!**
- **من؟؟!**

فوكزه نزار بيده وغمزه ثم قال:

- **لا أدري، أنت قل لي من؟؟!**

ابتسم أسامة وسرح بعيدا.

ثم قال نزار:

- هيا قل لي؟؟ هل أخبرت عمتي وريامي؟

- بماذا أخبرهما؟

- بأنك ستتزوج!

هنا حلت غيمة من الكآبة على أسامة، فقال:

- أتزوج؟؟!! أنت تحلم يا أخي!

- لماذا؟؟!!

- لأنها ربما تحتقرني بل وتكرهني!

- ماذا تقول؟!

- لا أدري، ولكنني أشعر بنفس شعورك الآن!

- حسنا، من هي؟ هل أعرفها؟!

- لا أعتقد ذلك، فأنا نفسي لا أعرف عنها سوى القليل!

وصلت رفيف ليلا بعد ساعتين ونصف من السفر، لم تكن تقوى على فعل أي شيء سوى النوم، فضبطت ساعتها وغرقت في النوم خلال دقائق!

استيقظت صباحا على صوت المنبه فقالت بضيق:

- ها قد عدنا مجددا!

قامت بكسل وأخذت حماما سريعا ثم ذهبت إلى الكلية.

كان نزار متلهفا لرؤيتها بينما هي فقد كانت متلهفة لرؤية أسامة لذلك عندما رأته قالت بشكل آلي:

- مرحبا أسامة!

نظر إليها باستغراب ودهشة وقال مستنكرا وهو يتلفت حوله:

- أسامة؟؟!! من أسامة؟؟!!

شعرت بالإحراج فقالت متداركة الموقف:

- **آسفة نزار، كنت أفكر بشيء آخر.... كيف حالك..... نزار؟!**

أجاب بمرح:

- **أصبحت بخير الإن!!**

كانت تدعو الله بأن تتمكن من رؤية أسامة في طريق عودتها إلى البيت، فربما تلمحه خارج الدكان أو ربما في الشارع أو في أي مكان، المهم أن تراه، لذلك كانت تمشي ببطء في الطريق المعتاد الذي يقع بين بيتها ودكانه وعندما وصلت عند الدكان أطلت برأسها ولكنها لم تجد أحدا فخطر نفس السؤال في بالها:

(كيف يغلق دكانه عندما يخرج وهي لا تملك بابا؟؟!!)

****

استيقظت على صوت هاتفها في صباح اليوم التالي:

- **مرحبا سوار**
- **كيف حالك رفيف!**
- **بخير، كيف حالك أنت؟**

صمت لبرهة وتنهد، فسألته بقلق:

- **ماذا هناك؟؟**
- **ازدادت حالة أمي سوءا ليلة البارحة.**

صاحت وهي تقفز من السرير:

- **سآتي الآن إلى قصترم.**
- **انتظري أنا سآتي لاصطحابك.**
- **لا تتأخر أرجوك.**

لم تكد تمر الساعتين حتى وصل سوار فاتصل بها لتنزل، وما هي إلا دقائق حتى نزلت على عجل بحقيبتها الصغيرة، ثم ركبت السيارة وقالت:

- هيا سوار انطلق بسرعة.
- اهدئي قليلاً، هل أخبرت رجاء بأنك ذاهبة؟
- لا!
- رفيف، يجب أن تخبريها وقومي بإعطائها نسخة من مفتاح شقتك أيضا لكي يتفقدوها أثناء غيابك.
- سوار!! هل حالة أمي خطيرة لهذه الدرجة؟ هل سأبقى في قصترم لفترة طويلة؟
- رفيف حبيبتي أسرعي أرجوك وسأخبرك بكل شيء في الطريق.

نزلت من السيارة بإذعان ثم ذهبت إلى شقة الجدة عفاف وصديقتها رجاء. ضغطت على الجرس، وبعد ثوان جاء صوت الجدة من خلف الباب:

- من هناك؟
- أنا رفيف.

سمعت صوت القفل يفتح ثم رأت وجه الجدة البشوش، فابتسمت رغما عنها ثم قالت لها:

- مرحبا جدتي، آسفة على إزعاجك!
- لا يا بنتي، تفضلي.
- شكرا لك لكنني في عجلة من أمري؛ فشقيقي سوار ينتظرني في السيارة خارجا، يجب أن أعود إلى قصترم معه.

سألت باهتمام:

- هل هناك خطب ما؟ فلقد عدت من قصترم قبل يومين فقط!!
- أمي مريضة ويجب أن أذهب لأراها، لذلك هذه نسخة من مفتاح شقتي في حال تأخرت في العودة.

أخرجت المفتاح من حقيبتها وأعطتها إياه، ثم قالت قبل أن تذهب:

- هلا أبلغت رجاء بأن تأخذ لي إذن غياب من الكلية؟

هزت رأسها بامتنان وودعتها ثم ذهبت بسرعة إلى السيارة حيث ينتظر أخوها.

- حسناً سوار هيا أخبرني.

تنهد بعمق ثم قال وهو يدير مفتاح السيارة:

- ليلة البارحة اشتد الألم على أمي فذهبنا بها إلى الطبيب فقال بأنه يجب أن نجري لها عملية نقل كلية مستعجلة.

صمت ثقيل خيم عليهما والخوف بدأ يسيطر على رفيف فسألته بصوت مرتجف:

- وما هي نسبة نجاح العملية؟
- اطمئني، فقد قال الطبيب بأن العملية مضمونة بنسبة ٩٥%.
- ومن سيتبرع لها بها؟

سكت سوار ثم قال:

- أجرينا تحليل الدم أنا وأبي وزوجة خالي، ولكن أيا منا لم تطابق فصيلة دمه وأنسجته مع أمي، لذلك..
- حسنا، أتمنى أن تتطابق معي.

أشار الطبيب إلى أن حالت أم سوار قد استقرت من جديد ولكن الألم قد يعاودها مجددا لذلك أصر على أن تخضع للعملية في أسرع وقت، لذلك قررت عائلة اليمامي إجراء العملية بعد أن تنتهي رفيف من دراستها أي بعد أربعة أشهر بحيث أن العملية ستجرى في مدينة تيكوبا، والمتبرع لن يكون سوى رفيف التي تطابقت فصيلة دمها مع والدتها، لهذا بعد أن قضت ثلاثة أيام مع أمها واطمأنت عليها، كان يتوجب عليها العودة إلى فنتيل.

- حسنا رفيف هيا بنا.

قال سوار وهو يفتح باب السيارة ويضع حقيبة رفيف، ثم قال مازحا محاولا أن يلطف الجو ويزيل التوتر:

- وبعد العودة من تيكوبا سأشتري لك سيارة هدية مني، ما رأيك؟؟

لكن رفيف لم تجب فقد كانت في عالم آخر، حيث كانت تفكر بأمها من جهة وبنفسها من جهة أخرى فقد كانت تعاني من الرهاب من الأطباء ومن الدماء ومن كل شيء يتعلق بذلك، بالإضافة إلى الوسواس القهري الذي كان يصعب كل الأمور في حياتها.

وصلا مساء وما هي إلا بضع ساعات حتى كانت رفيف تغط بالنوم من شدة التعب والتفكير، ولكن في منتصف الليل استيقظت فزعة خائفة فقد رأت كابوسا مزعجا، كان العرق يتصبب منها والخوف يتملكها وجسدها يرتجف، كانت تريد أن تتحدث إلى أحد، فاتصلت على سوار والذي كان من المستحيل أن يوقظه رنين الهاتف، ثم اتصلت على رجاء ولكنها أيضا لم تجب، لذلك ومن دون تفكير وبيد مرتجفة أخرجت بطاقة أسامة وضغط على الرقم وهي لا

تدرك ماذا تفعل، رن الهاتف كثيرا إلا أنه لم يجب. فعاودت الاتصال به مرة أخرى فقد قررت بأنه يجب أن يستيقظ، وبعد عدة رنات جاء صوته منخفضا هادئا:

- ألو!!!

قالت بصوت مرتجف:

- أسامة!

ثم انخرطت بالبكاء!!

صاح بدهشة:

- رفيف؟؟!! هل هذه أنت؟؟!!

- أسامة أنا خائفة جدا.

- حسنا اهدئي أرجوك، أين أنت؟

- في البيت.

فتنهد باطمئنان:

- هذا جيد، والآن كفي عن البكاء وأخبريني ماذا هناك!

حاولت أن تتمالك نفسها، فقال لها عندما شعر بأنها هدأت قليلا:

- حسنا رفيف أخبريني!

- لا أستطيع!

- ولكن كيف سأساعدك إن لم تخبريني.

قالت وهي على وشك البكاء مجددا:

- هل يمكنك أن تبق معي على الهاتف قليلا؟

صمت لبرهة ثم قال بصوت مبتسم:

- بكل سرور آنستي، ولكن هل يمكننا أن نتحدث؟؟!

ضحكت ضحكة ذابلة ثم قالت:

- كما تشاء!

شعرت بالأمان والدفء عند سماع صوته، لذلك عادت للاستلقاء على فراشها وهي لا تزال تمسك بالهاتف على أذنها

والصمت يلفهما، فقال:

- رفيف...هل أنت أفضل الآن؟

تنهدت وأجابت بصوتها الرقيق:

- نعم قليلا.

- لماذا أنت صامتة؟

فقالت بتأن وحذر:

- وماذا يتوجب علي أن أقول؟؟!

- أي شيء!! حدثيني عن نفسك قليلا!

ابتسمت وقالت:

- لماذا؟؟؟

- ربما لأنني لا أعرف شيئا عنك سوى اسمك.

فضحكت وقالت:

- أَوَلا يكفي هذا؟؟!

فسأل:

- يكفي لماذا؟؟!

شعرت بخفقان قلبها لذلك لم تجب.

ثم عاد الصمت ليخيم مرة أخرى وكل واحد منهما لا يعلم ما الذي يجول في ذهن الآخر، فسألها:

- لم تقولي لي من هو الرجل الرمادي!!

- لا أعلم ما الذي يخيفك من هذا الرمادي، ولكنه ليس سوى بطلا في رواية خيالية من تأليفي!!

ثم ضحك وقال:

- ومن قال لك إنه يخيفني؟

- لأنك طلبت مني أن أغير العنوان، ولأنك سألتني عنه أكثر من مرة، فهل هذا يعني شيئا؟!

- ربما، ولكن ليس الخوف!

- إذا الفضول؟!

- كم عمرك رفيف؟

- اثنان وعشرون.

- أوه مازلت صغيرة!!

- وأنت؟

- تسع وثلاثون، بعمر والدك تقريبا، أليس كذلك؟

فضحكت وأجابت:

- لا أبدا، يمكننا القول بأنك بعمر أخي سوار تقريبا!

- سوار ورفيف!! قولي لي من اختار اسميكما؟؟!

- أمي، لماذا؟؟!

- أسماء طفولية رائعة!!

- أسامة، أنا آسفة لأنني أزعجتكم في مثل هذا الوقت، لا بد أن زوجتك غاضبة الآن!

عض على أسنانه بقوة ولكنه لم يجب.

- حسناً أسامة عد إلى النوم الآن لا بد أنني أثقلت عليك.

قال بعد صمت كاد يقتلها:

- زوجتي توفيت!

اعتقدت بأن أحدا ما أصابها بسهم مخدر حتى وصل إلى أعصابها ففقدت القدرة على الاستيعاب، فقالت بلا وعي وأسى:

- أنا آسفة لم أكن أعلم ....

وارتبكت وغابت الكلمات وبح صوتها، ولكن وعندما بدأ تأثير المخدر يزول شعرت بالسرور!

فأخذت تؤنب نفسها: أي أنانية أتصف بها؟؟! يا إلهي!!

فقال:

- لا عليك فقد مر وقت طويل و.....

ثم صمتا من جديد ولكن الصمت هذه المرة كان يختلف عن الذي قبلها، فقد كان قلبها يخفق بشدة.

- **حسناً أسامة، أشكرك كثيراً لأنك لم تتركني وحدي، تصبح على خير!**

****

الفصل الخامس

عندما استيقظت صباح اليوم التالي وجدت ثلاث مكالمات فائتة، واحدة من نزار، واثنتين من أسامة، فنظرت إلى الساعة فكانت قد تجاوزت الثانية عشرة، فصاحت قائلة:

- **يجب أن أكلم رجاء!**

فاتصلت بها وما هي إلا ثوان حتى جاء صوت رجاء من الجانب الآخر:

- **رفيف، كنت على وشك الاتصال بك، قلقت عليك كثيرا فقد كنت أتصل في اليومين الماضيين ولكن هاتفك كان مغلقا.**
- **مرحبا رجاء، أنا بخير لا تقلقي سأخبرك بكل شيء لاحقا، ولكن هل أخذت لي إذن من الكلية؟**
- **بالتأكيد، أخذت إذنا لمدة أسبوع!**
- **هذا جيد شكرا لك.**
- **هل ستأتين اليوم إلى الكلية؟**
- **لا، لا أعتقد ذلك!**
- **حسنا كما تريدين، لكن نزار سأل عنك كثيرا.**

سكتت رفيف وقد انزعجت بمجرد ذكر نزار فقالت:

- **أخبريه بأنني بخير.**

- **حسنا، انتبهي على نفسك وأنا سأمر عليك في المساء.**

وما إن أغلقت الهاتف حتى رن مجددا حيث كان المتصل هو أسامة، فارتبكت حتى أن الهاتف وقع من يدها، فتناولته بسرعة وأجابت بأنفاس متسارعة:

- ألو!

- صباح الخير!!! أعتقد بأنك استيقظت الآن، أليس كذلك؟؟

ابتسمت وقالت:

- **نعم، حتى أنني مازلت في السرير، كيف عرفت؟؟!**

قال مازحا:

- **أنا أعرف كل شيء!!**

فقالت بصوت متقطع وهي تحاول أن تتمالك أنفاسها:

- **حـ...قـ...أ؟!!**

- **ماذا بك، لماذا صوتك هكذا؟**

فقالت وقد ازداد توترها:

- **لا.... لا شيء، كنت أمارس الرياضة الصباحية فقط!!**

فقال وهو يضحك:

- **اعتقدت أنك مازلت في السرير!!**

سكتت وقد احمر وجهها وهي لا تدري بم تجيب فقالت:

- **لا أنا لم أقصد ذلك..**

- **لا عليك كنت أمزح معك!**

تنهدت بارتياح، ثم قال:

- **اليوم سآخذ رياضي إلى البحر فالجو مشمس ودافئ قليلا هل تأتين معنا؟؟!**

تفاجأت كثيرا ومن الفرحة عاد قلبها يخفق بشدة، فقد أحست وكأن لسانها قد انعقد فلم تجب، فقال:

- **حسنا أراك عند الرابعة، سآتي أنا وريم لاصطحابك.**

ثم ضحك وهي لا تزال تحت تأثير المفاجأة:

- **انتبهي على نفسك، مع السلامة.**

لم تستيقظ من اندهاشها إلا على صوت انقطاع الخط فأغلقت الهاتف وهي تخاطب نفسها:

- **هل أنا في حلم؟؟! هل مازلت نائمة؟؟!**

ثم انفجرت ضاحكة كالمجانين وقالت:

- **أنا أسعد إنسانة في العالم!!**

نظرت إلى الساعة فكانت قد قاربت على الواحدة فقالت بملل:

- **أي بعد ثلاث ساعات!!**

قامت بترتيب البيت واختيار الثياب التي سترتديها بعد عناء، ثم اتصلت بأمها لتطمئن عليها وقد كانت بخير.

بعد ذلك اغتسلت وارتدت ثيابها ووضعت هاتفها في حقيبتها ثم جلست على المقعد القريب من الباب وعينيها متسمرتين على الساعة التي كانت تشير إلى الرابعة إلا ربع، فقالت لنفسها بتأفف:

- **أووووف، لماذا يمر الوقت بطيئا هكذا؟؟!!**

استندت على المقعد بطريقة مريحة وأغلقت عينيها ثم سرحت بالذي يحصل معها وبدأت الأفكار تجتاح رأسها بعنف وتساؤلات لم تجد لها جوابا فأخذت تؤنب نفسها:

- **كيف أخرج مع رجل لا أعرفه جيدا وكأننا أصدقاء منذ زمن؟؟! يا إلهي هل أتصل به وأعتذر؟؟!! ولكنني فعلا أريد الذهاب!**

قطع حبل أفكارها رنين هاتفها:

- رفيف، نحن بانتظارك في الخارج!

نظرت إلى المرآة للمرة الأخيرة، فابتسمت برضى وأخذت حقيبتها ثم خرجت، ولم تنس أن تتأكد بأنها أغلقت الباب جيداً.

كان الجو رائعا، كان هناك الكثير من الناس على الشاطئ، وآخرون يسبحون، والأطفال يبنون قصورا من الرمال، شعرت بالسعادة وهي تتأمل المكان الذي بالرغم من روعته لم تستطع ألا تختلس النظر إلى أسامة الذي كان يمشي أمامها لاختيار مكان مناسب للجلوس.

قالت ريم بمرح:

- **هيا يا أبي بسرعة أريد أن أسبح وألعب.**

- **حسنا ريامي، انتظري حتى نرتب الأغراض أولا.**

بعد أن انتهوا أخذت ريم ألعاب الرمل وقالت ببراءة وهي تنظر إلى رفيف:

- **هل تأتين لتلعبي معي بالرمال؟؟**

ولكن قبل أن تجيب قال أسامة:

- حبيبتي ريامي لم لا تلعبين الآن لوحدك وسنوافيك أنا والآنسة رفيف بعد قليل!!

لكن ريم أخفضت رأسها وكتفت يديها وبقيت في مكانها، فضحكت رفيف وقالت وهي تقف:

- أوه لا تحزني، سألعب معك بالتأكيد هيا اسبقيني سآتي حالا.

فذهبت ريم وهي تركض بسرور، ثم نظرت رفيف إلى أسامة وقالت له:

- أنا آسفة ولكنني لم أرد أن تشعر ريم بالحزن، وعلى كل الأحوال فقد جئنا لنلعب ونمرح أليس كذلك؟
- بالتأكيد، أنا من يجب عليه الاعتذار لأنني قررت عنك، ولكنني لم أرد أن تثقل ريم عليك!!

أمضت ريم ورفيف وقتا رائعا حيث كانت ضحكاتهما تملأ المكان، ولكن أسامة كان أسعد منهما فقد شعر بالراحة للألفة والانسجام الذي نشأ بين ابنته ورفيف.

بعد فترة نظرت رفيف إلى أسامة الذي كان يراقبها فارتبكت وقالت وكأنها لم تنتبه لذلك:

- لم لا تأت للعب معنا؟؟!

بعد أن انتهوا من اللعب بالرمال تناولوا بعض الشطائر، ثم ذهبت ريم لتسبح، فقال أسامة:

- حسنا رفيف ألن تخبريني ما الذي حدث ليجعلك خائفة لدرجة أن تتصلي بي ليلة البارحة؟؟
- أنا آسفة لأنني أزعجتك!
- أنا لم أقصد ذلك، وأعتقد بأنك تعلمين بأنك لم تزعجيني!
- حسنا، سأخبرك، أمي مريضة فهي تعاني من فشل كلوي وقد ساءت حالتها كثيرا قبل عدة أيام، فأخبرنا الطبيب بأنه يجب أن تجرى لها عملية نقل كلية، لذلك كان لابد أن نخضع جميعنا لتحليل دم لتحديد المتبرع فلم تتطابق سوى فصيلة دمي مع فصيلة أمي، شعرت بالسعادة لأنه باستطاعتي مساعدة أمي ولو تطلب الأمر لوهبتها حياتي، ولكنني خائفة جدا من العملية .... ففي كل ليلة أصبحت أحلم بنفس الكابوس، بالإضافة إلى أنني من النوع الذي يعاني من الوسواس القهري، فماذا لو حدث خطأ في العملية أو استخدموا أدوات ملوثة أو...؟؟!

لم تكمل تلك اللائحة من الأمور التي تخيفها أيضا فلم ترد أن يظن أسامة بأنها فتاة ساذجة!

فنظرت إليه وابتسمت وهي تصارع دموعها! أما هو فلم يعرف كيف يخفف عنها، فقال لها:

- أنا آسف جدا بشأن والدتك وأتمنى من الله أن يشفيها.

نظرت إليه من بين الدموع وهذه المرة هي التي حدقت فيه وهو لم يبعد عينيه وإنما قال لها:

- لون عينيك ...

لكنها لم تدعه يكمل فتظاهرت بأنها تبحث عن ريم فقالت له:

- أين ريم؟

فجال بنظره على الشاطئ فوجدها هناك تلعب فقال لها:

- إنها هناك وهي بخير لا تقلقي.

ثم قال:

- رفيف لا تخافي من العملية أعدك بأنها ستمضي على خير.

ابتسمت له بامتنان ولكنها لم تقل شيئا.

أحس بأنها ليست على ما يرام فأراد أن يغير الموضوع فقال لها بتحد مصطنع:

- وما هي أخبار روايتك؟؟

حينها تذكرت بأنها تخوض معركة ضده فقالت بابتسامة المنتصر:

- جيدة جدا!!!

- لم أفهم!!! هل نشرتها؟؟!

- ليس بعد!

- ولكنني فهمت بأنك تعاقدت مع أحدهم عندما رفضتي عرضي.

وشدد على آخر جملة!

- بصراحة لم أكن حينها قد تعاقدت مع أحد!!

- حقاً!!!!! إذا لماذا رفضتي عرضي؟؟!

- هكذا!!

- أوه رفيف...هيا أرجوك!

- حسنا، أعتقد بأن كرامتي لم تسمح لي بذلك!! فقد رفضتني ورفضت روايتي أول مرة!

- ولكنني لم أرفضك، هذا أولا، وثانيا أنا لم أرفض روايتك بل رفضت العنوان وهناك فرق، أليس كذلك؟

- لا....

ابتسم وقد شعر بأنها تتحداه، فقال باستسلام:

- كما تشائين، ولكنني فعلا قد أعجبت بالرواية!!

- **شكرا لك!**
- **حسنا والآن هل تعاقدت مع أحد؟؟!**
- **مازلت أنتظر الرد!**

ثم ابتسم أسامة ابتسامة ذات معنى وقال: ألن تخبريني شيئا عن الرجل الرمادي؟؟

- **أظن أنه يجب أن أسأل أنا عن سر اهتمامك بروايتي أو بالأحرى بالرجل الرمادي بطريقة مثيرة للشك!**
- **قلت لك إنه مجرد اهتمام وفضول عاديين!**
- **لا أصدقك!**

سكت قليلا وكأنه يرتب كلماته ويحضر سطوره ثم قال:

- **هل أنت مصرة على سماع القصة؟؟**
- **لن أتتركك قبل أن تخبرني!**
- **حسنا إذا لن أخبرك أبدا حتى لا تتركيني!!**

من وقع الكلمات عليها رفعت رأسها فجأة ونظرت إليه وهي توقن أنه كان باستطاعته سماع نبضات قلبها.

حاولت أن تخلق من الأمر مزحة فقالت:

- **إذا ستشقى في حياتك!!**

ثم ضحكت أما هو فابتسم وقال:

- **حسنا آنستي، في ذلك اليوم تغيرت كل حياتي و....**

جاء صوت ريم حادا وهي تركض نحوهم والماء يقطر منها:

- **أبي أشعر بالبرد.**

ثم بدأت أسنانها تصطك ببعضها البعض فلفت رفيف المنشفة حولها بسرعة وأخذت تجففها ثم وضعها أسامة في حضنه وقال وهو يمسح على شعرها المبلل:

- **هل تشعرين بالدفء الآن؟**
- **نعم.**

ثم نظرت إلى رفيف وابتسمت لها وكأنها تشكرها على ما فعلت.

فأمسكت رفيف بيدها وسألتها:

- **هل تريدين العودة للسباحة؟!**

فأسرع أسامة قائلا:

- لا، فأنا أخشى أن تصاب بالبرد وحينها لن أستطيع النوم ليلا!

أحست رفيف بالانزعاج فقد شعرت بأن أسامة يتعمد فعل هذا لكي يتهرب من الإجابة على سؤالها، فقالت وهي تحاول ألا تظهر غضبها:

- **حسنا ربما يمكننا أن نذهب الآن إذا؟؟**

فنظر إليها وكأنه لا يعرف ماذا فعل، وسأل بدلال:

- ولكن لماذا؟؟!

أجابت رفيف ببرود وهي تتمنى صفعه:

- **لا أود أن أنهي رحلتكم الآن ولكن صديقتي ستأتي لزيارتي مساء ولا أريد أن أتأخر.**

ابتسم بانتصار لأنه لن يخضع للتحقيق ثم قال:

- **لم أشأ أن تنتهي هذه النزهة أبدا!**

ثم سكت ليرى تأثير هذه الكلمات عليها ولكنها عمدت على تجاهله بترتيب ثياب ريم، فقال لها أسامة:

- **هيا رياني اذهبي وأحضري ألعابك من على الشاطئ.**

وعندما ذهبت قالت رفيف بحنق:

- من الواضح بأنك تتقن الهروب بسهولة ومتى شئت!

فضحك وقال:

- **- صدقيني أنا لا أعلم عم تتحدثين! ولا أدري لماذا تسيئين الظن بي دائما!**

جاءت ريم وهي تحمل ألعابها الملونة بين يديها الصغيرتين، فساعدتها رفيف بوضعها في الحقيبة فقالت ريم ببراءة:

- **رفيف أنا أحبك!!**

احتضنتها رفيف وقالت لها:

- **وأنا أحبك كثيرا وسررت باللعب معك أيضا.**
- **هل سأراك مرة أخرى؟**

نظرت رفيف إلى أسامة بتردد، فقال وهو ينظر إليها:

- **بالتأكيد ريامي، سنراها مرة أخرى وأخرى حتى تمل منا!!**

****

الفصل السادس

جاءت رجاء والتي كانت كعكة من الشوكولاتة بانتظارها فقالت وهي تلتهم أول لقمة بشغف:

- **لقد اشتقت للكعك الذي تصنعيه!!**

ضحكت رفيف وقالت:

- **وأنا اشتقت لك!**
- **حسنا رفيف ما هي أخبار أمك؟ هل تحسنت؟**
- **بخير ولكن يجب أن نجري لها عملية نقل كلية وأنا سأكون المتبرعة.**

كانت رجاء فتاة بسيطة جدا تسكن مع جدتها والتي كانت آخر ما بقي لها من عائلتها، تدرس بمنحة مع رفيف في نفس الكلية ولكن في مجال الصحافة وليس المحاسبة.

كانت ممشوقة القوام، ذات بشرة حنطية وشعر بني يشكل إطارا رائعا لعينيها العسليتين الواسعتين، باختصار كانت جميلة بقدر بساطتها ورقتها.

أمسكت رجاء بيد رفيف وضغط عليها وكأنها تشجعها، فقد شعرت بقلقها وخوفها، فنظرت رفيف إليها وقالت بامتنان:

- **شكرا لك رجاء وأقدر وقوفك بجانبي، لحسن الحظ أنك صديقتي!**

في اليوم التالي لم تذهب إلى الكلية أيضا فقد ركنت إلى أن إذن الغياب لمدة أسبوع فوجدتها فرصة للنقاهة!!

اتصل بها نزار فكان لابد أن تجيب وإلا فإنه سيعلم بأنها تتجاهله عمدا.

- **مرحبا رفيف، وأخيرا استطعت الوصول إليك، كيف حالك؟؟!!**
- **أنا بخير.**
- **لماذا لم تأت إلى الكلية هذا الأسبوع؟؟**
- **نزار صدقني لا يوجد شيء مهم، فقط أردت أن أرتاح قليلا من ضغط الدارسة والجامعة بالإضافة إلى أنني اشتقت إلى أهلي كثيرا فقضيت معهم بعض الوقت، هذا كل شيء.**

- أتمنى لو أستطيع تصديقك، ولكن لن أضغط عليك أكثر، المهم أن تكوني بخير.

لم تصدق أنها وأخيرا قد أقفلت الهاتف، ثم هزت رأسها كعادتها لتبعد أية أفكار لم تستسغها ثم قررت أن تبدأ بدراسة الدروس والمحاضرات التي فاتتها، فقد كانت تريد أن تتناسى كل شيء وتفصل أحلامها عن دراستها لأنه لم يكن قد بقي على الامتحانات سوى بضعة أشهر بالإضافة إلى أن السنة التالية ستكون الأخيرة، فلابد أن تكون جميع علاماتها ممتازة لتستطيع الحصول على وظيفة بسهولة عندما تتخرج.

كان قد بقي بضع صفحات لتقرأها لذلك قررت أن تصنع كوبا من القهوة لتنتعش قليلا ولكيلا يغلبها الملل قبل النعاس، وبينما كانت كذلك رن هاتفها معلنا وصول رسالة نصية ففتحها وقرأت بصوت مسموع:

- (متى يوم ميلادك؟؟!)

ابتسمت عندما قرأتها، فم الذي يجعل أسامة يسأل سؤلا كهذا في مثل هذا الوقت فردت عليه برسالة كتبت فيها:

- (العاشر من آذار!)

فأرسل أخرى كتب فيها:

- (أووه خسارة هذا يعني بأنه مضى، حسنا وما هي فصيلة دمك؟!)

- (B+)

-(وما هي الهدية التي تتمنين الحصول عليها و لم يهدك إياها أحد بعد؟)

- (حمامة زاجلة!)

عندما قرأ آخر إجابة لم يستطع أن يتغلب على الفضول فاتصل بها وقال:

- مرحبا رفيف!

فقالت بمرح:

- أهلا أسامة، هل انتهى التحقيق الفدرالي أم بعد؟؟!

فضحك وأجاب:

- لا، ليس بعد وأعتقد بأنه لن ينتهي!! والآن أخبريني، لماذا حمامة زاجلة؟؟!!

- لا أدري لطالما تملكني الفضول حولها فأنا أعتقد بأنها شيء يشبه المعجزة، شيء مميز وكأنها تخص شخصين فقط حيث تربطهما بشيء يشبه السحر ليضفي حلاوة للانتظار، وكأنه لم يبق غيرهما في الوجود.

كان يشعر بشيء غريب، ربما ببراءة فقد الإحساس بها منذ زمن أو ربما بدهشة من أفكارها الرائعة، والتي ولو أمضى عشر سنوات محاولا الخروج بمثلها لما أفلح، أو ربما من عذوبة صوتها فقد الإحساس بكل شيء!!

لذلك آثر الصمت ولو استطاع لصفق لها!

فقالت باستهزاء وهي تبتسم نصف ابتسامة:

- **لا بد أنك جزمت بجنوني الآن!**

فقال ببساطة وحذر:

- **بالتأكيد لا، ولكنني لم أجد كلمات مناسبة لأعبر عن إعجابي واندهاشي بما قلت!!**
- **أوه لا تجاملني!!**
- **أنا لا أجاملك، وأتمنى أن تتحقق أمنيتك وتحصلي على هديتك.**
- **شكرا لك!**

ثم خيم الصمت من جديد فباغتته فجأة:

- **هيا أخبرني!**
- **بماذا؟؟!!**
- **لماذا رفضت أن تنشر روايتي؟**

فقال مازحا:

- **ولكنني عدلت عن رأيي ووافقت بالنهاية وأنت من رفض!**
- **أنت تعلم بأنني أعلم بأن هناك سر ما!**
- **إذا أخبريني به!**
- **اقرأ روايتي وستعرف!**
- **حاولت ولكنني لم أجد شيئا!**
- **إذا اقرأها مرة أخرى!**

أراد أن يغير الموضوع فقال:

- **حسنا، ماذا كنت تفعلين قبل أن أتصل بك؟**

- كنت أدرس!

- صحيح، ما هو تخصصك؟؟!

- المحاسبة؟!

- حقا؟؟! لقد أدهشتني.

- لماذا؟

- اعتقدت أنك تدرسين الأدب العربي أو شيء من هذا القبيل فلم أتوقع أن تخرج رواية رائعة من أصلاب محاسبة!!

ضحكت ثم قالت بحسرة:

- حتى اليوم لم يتصل أحد بي من أجل الرواية لابد أنها لم تعجبهم!

- لا بد من الانتظار فترة وأنا متأكد من أنهم سيتصلون، وعلى أي حال إن تراجعت عن قرارك فأنا جاهز للتكفل بـ...

قاطعته بإصرار وحزم:

- لا شكرا لك.

ولكن قبل أن تغلق الهاتف نادت عليه:

- أسامة؟!

رد بلهفة:

- نعم!

- كيف حال ريم؟

شعر بسعادة بالغة لاهتمامها بابنته فأجاب:

- إنها بخير.

في اليوم التالي ذهبت إلى الكلية وما إن رآها نزار حتى حلق نحوها وقال بلهفة وانفعال بالغ:

- رفيف!!!

حاولت أن تتصرف بلباقة معه فابتسمت وقالت:

- أهلا نزار، كيف حالك؟!

- بخير، لم أتوقع أن أراك اليوم!

فقالت بمرح:

- **لقد مللت من الكسل وشبعت من النوم!!**

بعد برهة رأت رجاء تطل من بعيد، فقالت لنزار:

- **بعد إذنك، فيجب أن أذهب الآن.**
- **بالتأكيد، أراك في المحاضرة القادمة!**

ثم ذهبت نحو رجاء وعكفت على الحديث معها فقد كانت الملجأ الوحيد للهروب من نزار!

****

- **مرحبا سيدي، أريد أن أتحدث مع المسؤول عن النشر لو سمحت.**
- **بالتأكيد لحظة من فضلك.**

تمنت أن موسيقى الانتظار التي وضعها لن تطول فقد كانت تثير أعصابها، ولكن بعد دقيقتين اختفت الموسيقى وجاء صوت مبحوح:

- **مرحبا، تفضل!**

فسألته:

- **قسم النشر؟**
- **نعم أنستي، كيف أستطيع أن أساعدك؟**
- **منذ أسبوعين وضعت رواية بعنوان "الرجل الرمادي"..**
- **من الجيد أنك اتصلت فقد كنا نريد التواصل معك قبل أيام ولكننا للأسف قد أضعنا رقم هاتفك.**

فقالت بسعادة لم تحاول أن تخفيها هذه المرة:

- **حسنا سيدي، ماذا قررتم بشأنها؟**
- **هل أنت مستعدة لتوقيع العقد؟؟**

قفزت بل طارت من الفرحة وقالت وهي لا تصدق ما تسمع:

- **هل هذا يعني بأنكم ستنشرونها؟**

- **بالتأكيد، فروايتك أكثر من رائعة!**
- **حسنا سيدي، أنا في فنتيل الآن ولا أعلم متى سأعود إلى قصترم ولكن هل أستطيع أن أوكل أخي لتوقيع العقد معكم بدلا عني؟**
- **بالتأكيد، ولكن يجب أن يكون معه توكيل خطي منك وصورة لبطاقة هويتك.**

بسرعة البرق اتصلت بسوار وقبل أن يتوفه بكلمة أخبرته القصة بكاملها بسرعة فائقة، فقال وهو يضحك:

- **رفيف لم أفهم كلمة مما قلت هلا أعدت ذلك ولكن ببطء!**

قالت وهي تحاول أن تهدئ نفسها:

- **سوار لقد قبلوا أن ينشروا روايتي!**

فصفر بفرح وقال:

- **هذا رائع**

ضحكت وقالت له:

- **ولكنني لن أستطيع أن أحضر لكي أوقع العقد فهل تستطيع أن تذهب أنت؟**
- **بالتأكيد، ولكن هل هذا يجوز؟**
- **نعم، ولكنك ستحتاج لتوكيل خطي مني!**

ضحك وقال:

- حسنا سيدتي ومتى سأستلم التوكيل؟

- الآن سأكتبه وأرسله لك.

قررت المرور على دكان أسامة لرؤية ما إن كان يوجد فاكس هناك لترسل لسوار الورقة، وعندما وصلت لم يكن أسامة موجودا، وإنما شابا في مقتبل عمره فسألته إذا ما كان يوجد فاكس فدلها عليه، فأرسلت الرسالة، وفي نفس اللحظة اتصلت بسوار لتتأكد بأنه استلمها، ثم سألها عن رقم الفاكس الذي أرسلت منه ليرسل لها نسخة من العقد.

بعد أن أقفلت الخط، وكانت على وشك الخروج التفتت إلى الشاب وسألته عن أسامة، فأخبرها بأنه في دار النشر.

ثم أدارت ظهرها لتخرج، ولكن شيئا ما خطر ببالها فابتسمت تلك الابتسامة الساحرة والتفتت إلى الشاب مجددا وقالت له:

- حسنا عندما يأتي هل يمكنك أن تسأله سؤالا؟

****

لم تستطع النوم تلك الليلة، فحضرت كوبا من القهوة التي كانت قد بدأت أن تدمن عليها ثم أخذت تراجع الدروس التي أخذتها في الكلية إلى أن غلبها النعاس أخيرا.

أول شيء فعلته عندما فتحت عينيها صباحا هو الاتصال بسوار، الذي رد بصوت خافت:

- ألو!!

فصاحت:

- سوار، أما زلت نائما؟

- رفيف هل تعلمين كم الساعة الآن؟؟

نظرت إلى الساعة بتردد وقد شعرت بأنها ارتكبت خطأ عندما كانت الساعة تشير إلى السادسة والربع فقط.

بعد قليل نهضت والتهمت فطورها بسرعة ثم ذهبت إلى الكلية وهي تتمنى ألا يتأخر سوار بمعاودة الاتصال بها.

في طريق عودتها اتصل أخيرا فردت بسرعة:

- هيا أخبرني ماذا حصل؟؟!

- أنا آسف رفيف فقد حصلت مشكلة ولم نوقع العقد!!

- مـــاذا؟؟!!

- نعم هذا ما حصل.

كانت على وشك البكاء ومن الصدمة فلم تقل شيئا لفترة ثم قالت:

- يا إلهي!

- رفيف..... كنت أمزح معك!!

لم تستوعب ما قاله فلم تعلق، فأعاد وهو يضحك:

- رفيف كنت أمزح معك، لقد وقعت العقد وأرسلت نسخة منه لك على الفاكس!

فقالت وهي تبكي وتضحك في نفس الوقت:

- لقد حطمت قلبي بمزحتك!

عرجت على الدكان، ولكن من فرط الفرحة لم تنتبه لوجود أسامة، ولا لوجود أي شيء آخر، كانت فقط ترى الفاكس ولكن عندما وجدته خاليا، صاحت:

- أين هي؟؟!!

فسعل ليعلمها بوجوده فالتفتت إليه وقالت بقلق:

- أسامة، هل رأيت الورقة؟؟! لقد أرسلها أخي. لقد قال بأنه..

فابتسم وقال:

- هدئي من روعك قليلا...

ثم أكمل وهو يعطيها ورقة مطوية:

- هل هذه هي التي تبحثين عنها؟؟

فانتزعتها منه بلهفة وقلق، وعندما قرأت ما فيها ابتسمت واغرورقت عينيها بالدموع تأثرا، ثم نظرت إلى أسامة وأخذت تخاطبه وهي فاقدة الشعور بكل شيء:

- نعم هذه هي!

ثم وهي بنفس الحالة ومن دون شعور خرجت من الدكان من دون أن تنطق بكلمة، ولكنها عندما قطعت نصف المسافة بدأت تعود لوعيها من جديد، وتأثير الفرحة بدأ يخف تدريجيا وأخذت تستوعب ما حصل قبل قليل، فقد كانت في دكان أسامة وهو الذي أعطاها الورقة وهذا يعني بأنه بالتأكيد قد قرأها وبالتالي لم يعد هناك معركة تخوضها ضده لأنه علم الآن بأنها ستنشر روايتها قريبا، فوبخت نفسها قائلة:

- كم أنا بلهاء لقد أفسدت كل شيء كالأطفال، ومن ثم فإنني لم أشكره!

في الوقت الذي كانت تخاطب فيه نفسها لم تكن تعلم بأنها تعود أدراجها إلى الدكان مرة أخرى، وعندما وصلت هناك رأت أسامة يجلس على عرشه وينفث سيجارة ولم يكن قد انتبه لعودتها، فدخلت بهدوء ثم قالت:

- **ألا تعلم بأن التدخين مضر بالصحة؟؟**

ابتسم عندما سمع صوتها فرفع رأسه وأطفا سيجارته ثم قال:

- **لابد أنك نسيت شيئا لذلك عدت، أليس كذلك؟**

- **نعم، نسيت أن أشكرك!!**

لم يجب، ولكنه شعر بأن شيئا ما داخل جوفه انتفض فقال محاولا أن يخفي شعوره:

- **لا داعي لذلك.**

- **كيف حالك؟**

- **بخير، وأنت؟؟!**

ولكن قبل أن تجيب قال:

- تهاني الحارة لتوقيعك العقد، أنا آسف لم أقصد التطفل ولكن الشاب الذي يعمل هنا قال لي كل شيء البارحة فشعرت بالفضول اتجاه تلك الفتاة و .....

ثم ابتسم وأكمل:

- **وسؤالها!!**

فاحمرت وجنتاها وشعرت بالإحراج وقالت:

- **لم أكن أعلم بأنه سيخبرك، كنت أمزح فقط!**

- **لا لم تكوني!!**

- **حسنا هو سؤال ربما يكون غبيا ولكنه راودني في أول مرة دخلت فيها إلى دكانك و هو: (كيف تغلق الدكان عندما تخرج و هي لا تملك بابا؟؟!!)**

أطال النظر إليها ثم قال:

- **لا يفوتك شيء رفيف!!**

- **إذا ستجيب؟!**

- **قطعا...ولكن ليس الآن!!**

- **حسنا كما تشاء، لم أكن أعلم أن هذا السؤال خطير إلى هذه الدرجة!!**

- رفيف.... أرجوك لا تغضبي.

خرجت وهي تكاد تموت غيظا وغضبا فقد نزع فرحتها وأشعرها بالضيق. اتصل بها بعد ساعة لكنها لم تجب فأعاد الاتصال مرة أخرى وأخرى إلى أن سئمت وأغلقت هاتفها وقررت أن تضع أسامة جانبا الآن لكي تشعر بطعم نجاحها حيث أخذت تقرأ العقد بتركيز و استمتاع.

مر النهار سريعا ما بين الدراسة والأكل والترتيب حتى حل الليل فكانت تلك أول ليلة تنام فيها بعمق منذ أسبوع تقريبا فلم تراودها الكوابيس ولم تستيقظ ليلا، لذلك استيقظت مبكرا في اليوم التالي وعندما فتحت هاتفها وجدت رسالة من أسامة يعتذر فيها عما بدر منه، لكنها لم تهتم أو ربما أجبرت نفسها على عدم الاهتمام، فنهضت وارتدت ثيابها استعدادا للذهاب إلى الكلية ولكن رن هاتف الشقة فجأة فخمنت بأنها قد تكون رجاء وفعلا صدق حدسها:

- مرحبا رجاء، كيف حالك؟
- رفيف، أغيثيني، جدتي..

شعرت بأن قلبها قد سقط فقالت بخوف:

- رجاء ماذا هناك؟
- لا وقت للشرح الآن، تعالي بسرعة!

بسرعة الرياح انطلقت إلى بيت رجاء حتى أنها نسيت أن تغلق باب شقتها، كانت رجاء تقف عند الباب وشعرها مبللا و الماء يتساقط منه على الأرض وهي ترتجف ودموعها تنهمر و عندما رأت رفيف ارتمت في حضنها و هي تقول:

- رفيف.....ادخلي بسرعة.

لم تتمالك رفيف نفسها من المنظر الذي رأته، كانت الجدة عفاف بجثتها الضخمة مستلقية على الأرض والدم يسيل من رأسها فنظرت إلى رجاء بخوف، وقالت بصوت مرتجف وهي مسمرة في مكانها:

- رجاء ماذا حدث؟
- لقد سقطت أو ربما انزلقت، لا أدري ما الذي حصل أو كيف، كنت أغتسل في الحمام، وفجأة سمعت صوت ارتطام قوي فخرجت بسرعة ووجدتها هكذا، رفيف لم تمت أليس كذلك؟؟

عندما سمعت رفيف ذكر الموت شعرت بقشعريرة تسري في جسدها ولكنها تمالكت نفسها وصاحت:

- **رجاء اتصلي بالإسعاف فورا.**

الفصل السابع

- أسامة! ما الذي خطر على بالك وجئت لتراني هنا في الكلية؟

ابتسم ابتسامته الرائعة ثم أجاب:

- لا شيء، شعرت بالملل فجئت لأقضي بعض الوقت معك!

صفق نزار بانفعال وهو يضحك ثم قال:

- سأحاول تصديقك!

- هيا ألن تريني الفتاة التي سرقت قلبك؟!

- أها.. .هذا إذا ما جاء بك!

- أنت تعرفني يا أخي، الفضول عدوي الأول!

- حسنا، إن حالفك الحظ فستراها!

فابتسم وهو يضرب كفه بالطاولة وقال:

- آمل ذلك!

وما هي إلا ثوان حتى أطلت رفيف مع رجاء، فقال نزار بهدوء وارتباك:

- ها قد أتت!!

- أين هي؟

فأشار نزار إلى رفيف التي كانت تقترب من الطاولة أكثر فأكثر!!

صاحت رفيف:

- أسامة ماذا تفعل هنا؟!

كان أسامة في حالة تشبه الغيبوبة فلم يكن يستطيع تصديق عينيه، فهل يمكن أن يحب الفتاة التي أحبها أخوه؟؟!

ابتسم نزار وهو لا يدري ما الذي يحدث وسألها باستغراب:

- رفيف هذا أخي، هل تعرفينه؟!

تجمدت رفيف في مكانها فهل .....!!

وضعت يدها على رأسها وقالت وهي تنظر إلى أسامة:

- لم تخبرني قط بأن نزار هو شقيقك!

كان أسامة ينظر إليها بحسرة، فمن أين له أن يعلم بأنها تعرف نزار؟! فنظر نزار إلى أسامة ثم إلى رفيف وقال بحذر:

- **هل هناك شيء ما لا أعرفه؟!!**

لم يجب أحد منهما فكيف يرد أسامة وقد أصبح يعلم بأن شقيقه الأصغر يحب الفتاة التي عشقها، وكيف لها أن تستوعب أن نزار هو شقيق أسامة وهي تدرك بأن نزار معجب بها، فقالت:

- **أنا آسفة يجب أذهب الآن، فقد تذكرت أمرا مهما يجب أن أقوم به.**

لكن أسامة صرخ من دون وعي وقال:

- إذا هل هذه هي الفتاة التي تحبها يا أخي العزيز؟؟! هل رفيف هي فتاة أحلامك؟؟!

أدارت رفيف رأسها وحينها أدركت بأن المصيبة أصبحت اثنتين، صرخ نزار في وجه أسامة وقال له:

- ماذا جرى لك؟؟!! ماذا تظن بأنك تفعل؟؟!

لكن أسامة لم يأبه لأخيه فأخذ يضحك ضحكة هستيرية كالسكارى فعاجله نزار بلطمة على وجهه وأمسك به من قميصه وقال له:

- هل جننت؟؟!

مسح أسامة الدم الذي سال من أنفه وقال بهدوء مفاجئ:

- نعم جننت!

وبهدوء أكثر أبعد يد نزار عن قميصه وذهب.

كانت رفيف ترتجف كورقة شجر جافة ودموعها تسيل على خديها بهدوء مؤلم. أما رجاء فقد كانت أيضا في ذهول تام مما يجري، فأمسكت يد رفيف لتحثها على ترك المكان، فذهبت معها متجاهلة نداءات نزار المتكررة، وهي تتمنى بأن ما حدث لم يكن سوى غيبوبة وأنها ستستيقظ منها عما قريب!

لكن دموعها لم تشأ أن تتوقف وعندما وصلت إلى البيت ارتمت على سريرها وأخذت تكلم رجاء وهي تشهق:

- **يا إلهي ما الذي يحصل معي؟؟!! كيف لم أنتبه لهذا؟؟!**

الآن تذكرت أين سمعت باسم (باكير)، (نزار باكير)!! وثم ...نعم الآن عرفت لم بدى لي أسامة

مألوفا، لأن نزار يشبهه كثيرا فهما متشابهان جدا، بالإضافة إلى ذلك فهما يسكنان في نفس البناية أيضا!!

يا لي من بلهاء يا رجاء، بل أنا أكبر بلهاء في هذا الكون!! يا إلهي ارحمني، ليتني لم أعرفك أبدا يا نزار!

أما أسامة فقد كان منهارا تماما كان يشعر بأنه في كابوس مؤلم مخيف، فلم يكن يتوقع أبدا أن رفيف هي الفتاة التي يحبها أخوه! كان يدرك بأنه أخطأ في حق نزار فما كان يجب أن يفعل ما فعل، فقد دمر كل شيء!

استيقظ مما كان فيه على صوت هاتفه يرن:

- سيد أسامة؟
- نعم، من المتكلم؟؟!
- أنا معلمة ابنتك ريم من الحضانة!

فصاح بقلق وهو ينظر إلى ساعة يده:

- يا إلهي لقد نسيت إحضارها!!

استقل سيارته بسرعة وما هي إلا دقائق حتى وصل الحضانة فركضت ريم نحوه فاحتضنها وقال لها:

- أنا آسف جدا أعدك بألا أتأخر مرة أخرى!

****

- نزار أنا آسف لما حصل، لم أقصد أن...
- لا بأس يا أسامة فقد انتهى كل شيء، ما من شيء يجدي نفعا الآن.
- لماذا؟

نظر إليه نزار نظرة غضب واستنكار ثم صاح في وجهه:

- لماذا؟؟!! لماذا يا أخي الحبيب!!! أنا لا أعلم ولكن ربما أنت باستطاعتك أن تخبرني، أليس كذلك؟

أنا أريد أن أعرف كل شيء والآن، من أين تعرف رفيف؟؟! ولماذا تصرفت كالمجنون وأفسدت كل شيء؟؟!

- نزار اهدأ أرجوك فالأمر أبسط مما تتوقع!

- لا أريد أن أهدأ، أسامة أخبرني ولا تماطل!
- حسنا سأخبرك بكل شيء، أنا أعرف رفيف والتقيتها عدة مرات من قبل و ...

صفق نزار بحدة فهذه عادته عندما ينفعل ثم صفر وقال:

- أها وبعد أيها العاشق الولهان!!

- التقيت برفيف في مكتب حاتم التميمي، فقد أتت هناك لنشر رواية لها، وأعتقد بأنها أخبرتك...

قاطعه بحنق قائلا:

- لا لم تخبرني!
- حسنا، لا أدري ولكن إن شئت فاسألها، ثم التقيتها مرة في الطريق أمام دكاني، فقط هذا كل شيء، أنا لا أعرف عنها الكثير حتى أنني لم أكن أعلم بأنها تعرفك، صدقني!
- سأحاول ولكنني لم أقتنع! فهل لك أن تفسر لي لماذا تغير لونها عندما رأتك؟؟!
- حسنا هناك جزء صغير نسيت أن أخبرك به!
- أتمنى أنك لم تنس شيئا آخر!!
- لأننا اختلفنا على موضوع روايتها ورفضت أن أنشرها لها!
- ماذا تقول؟؟ لقد رفضت مساعدة رفيف؟؟! لماذا؟؟

كان أسامة قد بدأ يضيق ذرعا من التحقيق الذي يجريه نزار معه لذلك قال وهو يقف ببساطته وهدوئه المعتادين:

- لأن عنوان روايتها لم يعجبني!!

قال نزار بغضب وهو يحترق:

- أنت...أنت ماذا؟؟!!
- لا تكمل يا نزار، لقد ضقت ذرعا منك ومن تفاهاتك، ماذا تعتقد، ها؟؟!! أتعتقد أن هناك شيئا ما بيني وبين تلك الطفلة؟؟!! إياك أن تفتح معي هذا الموضوع مرة أخرى، لقد اعتذرت منك وأنا على استعداد لأصلح كل شيء بينك وبينها، وأعتقد بأنني بررت موقفي.

ثم خرج بعد أن رفع الجلسة بكلماته هذه وهو يدرك بأنه لم يعد لديه الحق بالحلم برفيف، فلم يكن يريد أن يخسر أخيه أو أن يدمر علاقتهما.

كانت رفيف تتصل بأسامة ولكنه لم يكن يجيب فقد قرر بأنه يجب أن يبتعد عنها لكيلا يتعلق بها أكثر، فكتب لها رسالة واشترى حمامة بيضاء ثم ربط الرسالة في ساقها ووضعها في قفص أمام باب شقتها وذهب بعد أن ضغط على الجرس.

فتحت باب الشقة وأطلت فتفاجأت عند رؤيتها ذلك القفص فحملته وابتسمت عندما رأت الرسالة مربوطة على ساق الحمامة، فأدركت بأن المرسل هو أسامة فهي لم تخبر أحدا سواه عن الحمام الزاجل، ففكت الرسالة بيد مرتجفة وبدأت تقرأها:

(عزيزتي رفيف...

أنا آسف لأنني لم أستطع الحصول على حمامة زاجلة حقيقية لكنني أتمنى أن تؤدي هذه الحمامة ولو جزءا بسيطا من الغرض وأن أكون قد حققت شيئا من أمنيتك.

أنا آسف لأنني يجب أن أبتعد، أردت فقط أن أقول لك بأنك أفضل شيء حدث في حياتي، وأنني لو لم أكن مضطرا لما تركتك أبدا.

رفيف سامحيني إن أسأت في حقك يوما، ولكن تأكدي بأنني إن فعلت ذلك فإنما هو عن غير قصد.

سأرحل قريبا جدا لدرجة أنني لن أستطيع رؤيتك، وبسرعة فائقة لدرجة أنك لن تستطيعي رؤيتي حتى لو مررت بجانبي، وسأطيل البقاء هناك لدرجة أنني ربما لن أعود...

رفيف لا أدري إن كان هذا الكلام سيكون ذو أهمية لديك أم لا، ولكنني لم أشأ أن أصبح عدو شقيقي الأول.

وأخيرا، لا تخافي من العملية الجراحية فسأكون بجانبك حينها حتى ولو بطيفي!)

المخلص باكير

كانت تفقد عقلها شيئا فشيئا كلما قرأت سطرا آخر من تلك الورقة تماما كالسكارى الذين يفقدون عقولهم شيئا فشيئا كلما شربوا أكثر، لم تكن تصدق عينيها ولم تكن تعلم أتفرح أم تحزن، أعادت قراءة الرسالة عشرات المرات، وهي تذرع الغرفة جيئة وذهابا والدموع قد أغرقت وجهها، كانت تشعر بأنها هشة مثل كرة الثلج، كانت تريد أن

تسمع صوته وأن تراه، نظرت إلى الساعة فكانت تشير إلى الثامنة والربع مساء فارتدت معطفها وخرجت قاصدة الدكان فقد كانت تعلم بأنها ستجده هناك حتما.

دخلت إلى الدكان فوجدته واضعا رأسه على الطاولة والسيجارة مشتعلة في يده، وأعقاب السجائر منتشرة في كل مكان، لم يشعر بوجودها فاقتربت منه ومررت يدها المرتجفة في شعره وقالت بصوت حنون:

- **أسامة!**

رفع رأسه بلهفة وقال:

- **رفيف...**

ثم أخفض رأسه مرة أخرى لكيلا ترى احمرار عينيه فقالت له:

- **لن أسمح لك بالابتعاد عني، أتفهم ذلك!**

نظر إليها وقد أيقن بأنها تبادله نفس المشاعر فقال بحسرة وألم:

- **أتمنى ذلك رفيف، ولكنني ...**

أخذت تبكي بحرقة وقالت له:

- **لا تتخلى عني أرجوك.**
- **أقسم أنه ليس بيدي!**
- **لكنني لا أحب نزار وأعتقد بأنه يعرف ذلك.**
- **أنا آسف رفيف، وأتمنى أن تعلمي بأنني كنت أفضل الموت قبل أن تأتي هذه اللحظة، فأنا لم أعد أستطيع العيش من دونك.**

مسحت دموعها وقالت وهي تركز عيناها على عينيه:

- **بلى تستطيع العيش من دوني، فقد كنت من قبل كذلك وها أنت ذا تتركني هكذا ببساطة!**
- **رفيف أتمنى أن تتفهمي موقفي.**
- **فهمت جيدا، فهمت بأنك لا تملك القوة والجرأة لتقاتل وتواجه مشاكلك بنفسك، فهمت بأنني أحببتك أكثر مما أحببتني أنت؛ لأنني لم أكن لأتخلى عنك بهذه البساطة عند أول مشكلة تواجهني، ولكن بالرغم من كل شيء أشكرك من أعماق قلبي لأنك وقفت بجانبي وجعلتني أعيش أياما رائعة لن أنساها.**

ثم ومن دون مقدمات وكعادتها أدارت له ظهرها لتذهب، ولكنه سألها:

- **أين ستجرين العملية الجراحية؟**
- **لم يعد يهم الأمر!**
- **أرجوك أخبريني!**

فقالت باستهزاء وهي ترفع شعرها عن عينيها:

- **لماذا؟؟! ألترسل لي طيفك هناك؟!**

شعر بألم في قلبه فوقف وضرب الطاولة بكلتا يديه بقوة وكرر سؤاله بغضب:

- **قلت لك أين ستجرين العملية؟؟!**

شعرت بالخوف، فلم تكن قد رأته غاضبا من قبل فأجابت بإذعان:

- **في تيكوبا.**
- **ومتى؟**
- **التاسع من تموز.**

فهز رأسه وابتسم ابتسامة أخافتها، فقالت وهي تذهب:

- **أنت مجنون!**

****

مرت الأيام والشهور ورفيف تصارع ذكرى أسامة، وتقتل وجود نزار، وتجاري الوقت، وتلتهم الكتب، وتفكر بالعملية الجراحية، وتهتم برجاء وجدتها حتى شعرت بأنها قد تنفجر في أية لحظة!

انتهت تلك السنة الدراسية وانتهت أيام الامتحانات بمجرد خروج رفيف من قاعة الامتحان، ولكن فرحتها لم تكتمل في ذلك اليوم لأنه بانتهاء الامتحانات انتهت حياة الجدة عفاف أيضا.

لذلك أصرت رفيف على رجاء أن تذهب معها إلى قصترم وأكدت لها بأنها لن تتركها وحدها في فنتيل أبدا.

عادت رجاء مع رفيف وقد لقيت استقبالا حارا من عائلة اليمامي حتى شعرت وكأنها تنتمي إليهم.

كانت العملية في التاسع من تموز ولكن كان يتوجب عليهم أن يكونوا في تيكوبا قبل ذلك على الأقل بيومين، لذلك سافروا جميعا في السابع من تموز، بينما الخالة أم الوليد بقيت برفقة رجاء في قصترم.

دخل الطبيب وفي يده ملف أم سوار ثم ألقى عليهم التحية وتجاذبوا أطراف حديث رسمي قصير ثم جلس الطبيب ليقرأ الملف الذي لم يكن قد اطلع عليه من قبل، وقد علموا بأنه طبيب قد تم تعينه حديثا بعد أنهى فترة التدريب فسأله سوار:

- حسنا أيها الطبيب ما هي الإجراءات التي ستتم؟

لكن الأخير كان مشغولا بقراءة ملف والدته والذهول باد على وجهه فرفع رأسه، وأخذ يحملق بسوار، فاستغرب سوار ردة فعل الطبيب، واعتقد بأنه مازال طبيبا غرا لا يعلم ما الذي عليه فعله، وأن السؤال قد أحرجه!

فقال سوار باستهزاء:

- ماذا أيها الطبيب؟؟!

أجاب بهدوء مفاجئ:

- لا أستطيع أن أجري العملية؟

فصاح الجميع بصوت واحد:

- مـــــاذا؟

عند تلك اللحظة غضب سوار وكان على وشك أن يهجم عليه ولكن والده منعه، ثم قال وهو ينظر إلى ردائه الأبيض:

- لماذا أيها الطبيب؟

فوقف الطبيب وأخذ ينظر إلى كل واحد منهم بتمعن وابتسامة تلمع على شفتيه، فقال:

- هل تريد أن تضربني يا سوار؟؟؟!!

- كيف عرفت اسمي؟

ولكنه تجاهله ثم اقترب من رفيف وقال لها:

- أما زلت تخسرين دائما؟؟!

من الصدمة تجمدت الدموع في عينيها؛ فلم يكن هناك من يقول لها هذه الجملة سوى شخص واحد فقط، فقالت بصوت مرتجف وهي تقترب منه:

- الوليد؟؟!!

بعد ذلك اللقاء الحار بين الوليد وعائلته، جلسوا في كافتيريا المشفى، وجميعهم يحدقون إلى الوليد غير مصدقين وفي المقابل كان هو يحدق بكل واحد منهم ويحاول تذكر تلك الأيام الرائعة معهم، إلى أن استقرت عيناه على رفيف، ولكن أم سوار قاطعت ذكرياته وسألته:

- كيف حال والدك يا بني؟

كان لايزال ينظر إلى رفيف، ولكن عندما سمع السؤال نظر إلى عمته وقال لها بأسى:

- عمتي...لقد توفي والدي قبل سنتين.

شيء ما منعها من البكاء على شقيقها، ربما الحزن أو ربما.... فأمسكت يده وضغطت عليها بشدة ثم قالت بحسرة:

- كنت أتمنى أن أراه...

بعد فترة سألها الوليد بتأن:

- أين أمي؟

- في قصترم لم تستطع المجيء.

فقالت رفيف:

- لقد اشتاقت لك كثيرا، وعندما تراك لن تصدق عينيها.

فابتسم نصف ابتسامة باستهزاء، فسألته رفيف بدهشة:

- ماذا هناك؟

فقال وعيناه تشتعلان غضبا:

- لا شيء، فقط لم أصدق أنها اشتاقت لي؟

فأجابت بغيظ:

- ومن قال لك هذا؟

- والدي!

فرد عليه والدها بانفعال:

- وهل صدقته؟!

لم يجب الوليد ولكنه أخفض رأسه، فقال له سوار:

- هذا يعني (نعم)!

فاقتربت منه رفيف وسألته:

- هل تصدق بأن والدتك قد تخلت عنك؟

فأجاب بكل هدوء:

- نعم!

حينها مر ذلك المشهد أمام عينيها مرة أخرى ولكن هذه المرة بوضوح أكثر وكأنه يحدث أمامها الآن، فها هو خالها يدفع الوليد إلى السيارة، ويلطمه على وجهه لأنه لم يكن يريد الذهاب معه، وها هي زوجة خالها تبكي وتصرخ بكل ألم الدنيا وتركض خلف السيارة وتمد يدها إلى ابنها ولكنها تسقط على الأرض....

عند تلك النقطة تشوشت ذاكرتها بدموعها، وبدأ الغضب يشتعل في عروقها فما كان منها إلا أن رفعت يدها وصفعته على وجهه بكل قوة، فوضع يده على خده ونظر إليها بدهشة، ولكن قبل أن يثور قالت له:

- هذه لكي تستيقظ!

وبسرعة عاجلته بلطمة أخرى وقالت:

- وهذه من أجل أمك!

فقال بغضب وهو يكاد أن يلصق وجهه بوجهها:

- أتدافعين عنها؟؟! أتدافعين عن المرأة التي..

فوضعت يدها بغيظ على فمه لتسكته وصاحت:

- إياك أن تكمل!

لم يتكلم ولكنه لم يكف عن التحديق بعينيها بغضب، فقال سوار وقد ضاق ذرعا:

- كفى يا رفيف، لا يمكن أن يتم التفاهم هكذا.

فقالت له بعصبية:

- قل لي إذن كيف؟؟!

ثم نظرت إلى الوليد وقالت له بإشفاق:

- أنت لا تستحقها!! نعم أنت لا تستحق أن تكون ابنها!

ثم ابتعدت عنه وأخذت حقيبتها عن الطاولة وذهبت من دون أن تلتفت إلى أي أحد، فأراد والدها أن يلحق بها ولكن سوار قال له:

- عندما تهدأ ستعود لوحدها، وعلى أي حال فلا يوجد أي مكان لتذهب إليه هنا.

جلس الوليد ووضع يديه على رأسه ثم قال:

- أنا لا أذكر شيئا، ولا أعرف ما الذي حصل بالضبط، أذكر فقط بأن والدي أجبرني على الرحيل معه وكانت حينها والدتي تبكي بحرقة، ولكن أبي برر لي ذلك وأقنعني بأن والدتي ليست امرأة جيدة، وبأنها ستنسانا عما قريب لذلك لم يعد يأتي بي لزيارتها وبعد ذلك لم يعد أحد يتصل بنا أو يسأل عنا، وهكذا برهن والدي نظريته فصدقته.

هل كان والدي يكذب علي؟

أمسكت عمته بيده وقالت له بحنان:

- اهدأ يا بني، سنخبرك بكل شيء.

استأذن سوار للذهاب خلف رفيف فبقيت أمه وأباه مع الوليد ليخبراه بكل شيء، وبالحقيقة التي شوهها والده.

بعد نصف ساعة عادت رفيف برفقة سوار إلى الكافتيريا وكان يبدو أن الوليد بحالة جيدة، فقالت له وهي تتحاشى النظر إليه:

- أنا آسفة!

فأجاب وهو يتحسس خده ويبتسم:

- لا عليك، فيكفيني بأنك تحبين والدتي لهذه الدرجة!

ثم أردف وهو ينظر إلى زوج عمته:

- حسنا أعتقد بأنه يمكننا الآن أن نعود إلى مكتبي للتحدث بشأن العملية.

كان ظهور الوليد المفاجئ قد أنسى رفيف العملية، ولكن الخوف عاد ليحتلها مرة أخرى ولكنها حاولت بألا تشعر بوالدتها بذلك.

عندما وصلوا إلى غرفته، قال الوليد:

- **حسنا عمتي يجب أن تدخلي المشفى اليوم مساء ليتم إجراء التحاليل المتبقية قبل العملية.**

ثم فتح الملف وقرأه بعناية ودهش عندما قرأ اسم المتبرع فسأل بقلق:

- **رفيف؟؟!!**

ثم تابع:

- **عمتي لن أستطيع أن أجري العملية لكما، فكما تعلمين بأن القانون يمنع الطبيب من إجراء أي عملية لأي من أقربائه.**

في ليلة العملية لم تستطع رفيف النوم، فتلك الثياب الخضراء لم تكن مريحة وكان قلبها يخفق بشدة حتى خيل إليها

وكأنها تستطيع أن تراه ينبض من فوق ثيابها!

كانت تفكر بشيئين فقط، بالعملية وبأسامة الذي لم تكن قد رأته منذ ثلاثة أشهر تقريبا.

تذكرت كلماته يوم أن افترقا: (رفيف لا تخافي من العملية أعدك بأنني سأكون بجانبك على الأقل بطيفي)

فقالت بصوت خافت ودموعها تغرق عينيها:

- **أين أنت أسامة؟؟ وأين طيفك؟؟ أنا بحاجة إليك.**

بعد ساعات استسلمت للنوم وعندما استيقظت في اليوم التالي كانت المفاجأة!

****

الفصل الثامن

استيقظت رفيف في اليوم التالي، نظرت إلى سرير والدتها فوجدته خاليا فاعتقدت أنها في دورة المياه، ولكن عندما نظرت إلى الساعة والتي كانت تشير إلى الحادية عشرة قفز قلبها وصاحت:

- **كان موعد العملية الساعة التاسعة هل هذا يعني بأننا انتهينا؟؟!**

فأخذت تتحسس جسدها بحثا عن أثر خياطة أو أي شيء غريب ولكنها لم تجد شيئا، فقالت بخوف:

- **أين أمي؟؟؟ ولماذا لم تجر العملية حتى الآن؟؟**

فضغطت على الجرس عدة مرات حتى جاءت الممرضة فسألتها بخوف:

- **ماذا حدث؟؟ أين أمي؟؟ ولماذا...؟**
- **سيأتي الطبيب الآن ويخبرك بكل شيء.**

لم تكد تنتهي الممرضة من جملتها حتى دخل الوليد وهو مبتسم فقفزت من السرير بقلق، فقال لها:

- **اهدئي واطمئني، فأمك الآن بخير وقد أجرينا لها العملية الجراحية!**

جلست على السرير وقالت وهي تمسك بذلك الرداء الأخضر:

- **ماذا تقول؟؟ كيف؟؟! وأنا؟؟**
- **كما تعلمين يا رفيف فأنا طبيب جديد هنا لذلك علمت البارحة فقط بأن متبرعا قد جاء قبل ستة أيام وتبرع بكليته، وعندما قرأت ملف المتبرع كانت فصيلة دمه مطابقة لفصيلة دم أمك لذلك تركناك نائمة!!**

كانت رفيف في ذهول تام فقالت:

- **من المتبرع؟**
- **لا أعلم، فلست أنا من أجرى له العملية وفي العادة فإننا يجب أن نلتزم السرية في مثل هذه الأمور.**
- **حسنا لماذا فعل ذلك؟**
- **قال بأنه بحاجة إلى النقود، فعلمت بأنهم أجروا له التحاليل اللازمة وتأكدوا من أنه لا يعاني من أية أمراض ثم أخضعوه لفحص الدم وفحص تطابق الأنسجة، وكتبوا النتائج كلها في ملفه وهكذا عندما أخبروني ليلة البارحة**

بالأمر قرأت ملفه بعناية وبالفعل كانت فصيلته تتطابق مع فصيلة عمتي كما قلت لك فقررت بأن تحظى بها والدتك وألا نعرضك للخطر أو....

ثم غمزها وأكمل:

- أو الخوف!!

ابتسمت له ثم وضعت رأسها بين كفيها وقالت والدموع تتلألأ في عينيها:

- **كيف حال أمي؟ هل هي بخير الآن؟**
- **نعم، لا تقلقي، ولكنها الآن في غرفة الإنعاش وعندما تستيقظ سنسمح لكم برؤيتها.**

ثم خيم الصمت ورفيف لازلت تفكر بذلك الأنسان الذي خلصها من الرعب الذي كانت تعيشه، فقالت:

- **أين الشخص المتبرع؟ أريد أن أشكره على ما فعل!**
- **لقد خرج قبل يومين من المشفى!**
- **كيف هذا؟؟ وهل استطاع أن يتعافى بهذه السرعة؟**
- **إن الفترة المعتادة والتي يجب أن يبقى فيها المتبرع في المشفى بعد العملية هي من ثلاثة إلى أربعة أيام، وهذا يتوقف على بنية الشخص وصحته العامة بالإضافة إلى قوة إرادته، وعلى ما يبدو فإن ذلك الرجل كان ذو إرادة قوية جدا فقد بقي باستضافتنا يومين فقط!**

****

اتصلت رفيف بعد ذلك بزوجة خالها ورجاء لتطمئنهم بأن والدتها بخير وأن كل شيء جرى على ما يرام، وعندما أغلقت سألت الوليد:

- **متى ستتحدث مع والدتك؟**
- **عندما أعود إلى قصترم!**

فابتسمت وقالت:

- **إذا ستعود معنا إلى قصترم!**

- بالتأكيد!

- للأبد؟!

ضحك الوليد لذلك التعبير الطفولي ثم قال:

- لا أدري!

بعد أسبوع تعافت والدتها وكانوا في طريق عودتهم إلى قصترم فاتصلت رفيف بخالتها عند وصلوهم إلى المطار:

- خالتي، خلال ساعة ونصف سنكون في البيت ومعنا مفاجأة عظيمة لك!

- حقا؟؟!! ما هي؟!

- ستعرفين بعد قليل ولكننا نريد عشاء لذيذا، ماذا أعددت لنا؟

- أعددت الكثير، ولكن إن كنت تشتهين شيئا فقولي لي وأنا أصنع لك ما تريدين الآن.

فنظرت إلى الوليد والذي كان ملصقا أذنه على الهاتف محاولا أن يسمع ما يدور بينهما، فابتسم ورسم لها شكلا في الهواء بيده، فضحكت، فسألتها خالتها:

- ماذا هناك؟ فقد بدأت أقلق من هذه المفاجأة!

- لا شيء مهم!!

فنظر إليها الوليد باستغراب وقال مازحا:

- ما من شيء مهم؟؟! لم أكن أعلم بأنني لست مهما!

- رفيف؟؟؟ من هذا؟!

فوكزت الوليد بيدها وقالت محاولة أن تسيطر على الوضع:

- إنه سوار! هل نسيت صوته؟؟

ثم لتغير الموضوع قالت لها:

- خالتي هل تستطيعين أن تعدي لنا فطائر الشوكولا المحشوة بالموز؟؟

- بالتأكيد يا بنتي.

ثم تنهدت وقالت:

- **لقد كان هذا طبق الوليد المفضل!**

- **شكرا لك خالتي، علي أن أغلق الآن.**

عندما أغلقت الهاتف نظرت إلى الوليد وأخذت تتأمله فقال لها:

- **لقد أخجلتني يا فتاة!!**

فضحكت وهي تواصل النظر إليه ثم قالت:

- **لم تتغير كثيرا!! أحاول أن أتخيل موقف خالتي عندما تراك، أخشى أن يحدث لها شيئا ما من فرط السعادة!**

- **أحقا تحبني إلى هذه الدرجة؟**

فقالت له بتأنيب:

- **يبدو أنك تريد صفعة أخرى!!**

فابتسم وقال وهو يضع يده على خده:

- **لا شكرا لك، فقد أخذت نصيبي وأكثر.**

نادى عليهما سوار من بعيد وهو يحمل إحدى الحقائب:

- **أنتما ماذا تفعلان هناك؟؟! تعاليا وساعداني!**

فقالت رفيف بصوت عال لإغاظته:

- **هيا لنذهب لنساعد سوار قبل أن يقع على الأرض لثقل الحقيبة!!**

فرفع سوار الحقيبة على كتفه بسهولة وخفة ثم قال لها:

- **يا لك من فتاة مشاغبة!! كفى كلاما وتعالي ساعدي والدتي!**

فقالت بإذعان وهي تذهب:

- **حسنا كفى، لا تبدأ بإصدار الأوامر، وتذكر بأنك وعدتني بأن تشتري لي سيارة.**

فضحك بسخرية وقال لها:

- **لا تحلمي حبيبتي فأنت لم تجر العملية، انسي الأمر!**

****

- **أبي...أبي لقد اشتقت إليك!!**

قالت ريم الصغيرة هذه الكلمات وهي تركض نحو والدها.

كان يريد أن يحملها ولكنه تألم فأنزلها بسرعة وقبل رأسها ثم قال لها:

- **وأنا اشتقت لك يا بنتي.**

ثم سلم على عمته وفاء، التي قالت بقلق:

- **كيف حالك يا بني؟؟! يبدو عليك التعب والإرهاق!**

- **أنا بخير، لا تقلقي هذا من أثر السفر فقط.**

- **وكيف كانت رحلتك إلى تيكوبا؟ هل أنجزت العمل الذي كلفت به؟**

سكت أسامة قليلا ثم قال وهو يبتسم ابتسامة رضا رغم تعبه وألمه:

- **نعم.**

ثم سألها:

- **أين نزار؟!**

- **لا أدري فهو لم يعد يمكث في البيت إلا نادرا!**

فتنهد بأسى و قال:

- **سنحل هذا الأمر لاحقا، أما الآن...**

قام عن المقعد بحذر ثم أكمل:

- **يجب أن أخلد للنوم فأنا مرهق جدا.**

ذهب إلى غرفته وأقفل الباب واستلقى على السرير ثم أخذ يتحسس أثر الخياطة على جانبه الأيسر ثم قال:

- **أنا مستعد للتضحية بأي شيء لإسعادك يا رفيف!**

ثم نظر إلى حقيبته والتي كانت تحتوي على النقود التي أخذها مقابل كليته وتمتم قائلا:

- **كان لابد أن أكذب تلك الكذبة وأدعي حاجتي للنقود للتمويه ولكنني....**

ثم ابتسم وشعر بالدفء يسري في جسده وقال:

- **سأحضر بهذه النقود مفاجأة لرفيف!!**

****

استقبلتهم أم الوليد بلهفة وساعدت أم سوار على الجلوس وهي تقول لها:

- **حمدا لله على سلامتك.**

فأطلت رجاء بمرح وعانقت رفيف وقالت:

- **لقد اشتقت لك كثيرا.**

فقال سوار وهو ينظر إليها وكأنه يراها لأول مرة:

- **كيف حالك رجاء؟!**

لكنها لم تنظر إليه فقد كانت تساعد والدته على خلع معطفها فاكتفت بابتسامة ربما لم يرها هو!!

قالت رفيف:

- **خالتي هل العشاء جاهز؟**
- **بالتأكيد.**

فقالت رفيف:

- **سأعد المائدة مع رجاء، وأنت هلا فتحتي الباب؟**
- **وهل رن الجرس؟ لم أسمع!**

فأجابت رفيف وهي تضحك:

- **صدقيني لقد رن!**

فذهبت زوجة خالها لتفتح الباب وهي تكلم نفسها وهي غير مصدقة بأن الجرس قد رن، وعندما فتحت الباب رأت شابا طويلا يقف هناك، فأخذت تتفحصه لأنه كان يبدو غريبا عن المنطقة فقال لها وعينيه مسمرتين على وجهها:

- **مرحبا خالـ....، مرحبا، أنا آسف على الإزعاج.... أنا صديق سوار وقد علمت بأنه سيعود الليلة لذلك مررت لرؤيته!**
- **بالتأكيد يا بني أهلا بك.**

دخل الوليد حسب الخطة التي اتفق عليها مع رفيف، ثم سلم على والدة سوار وكأنه يعرفها لكونها والدة صديقه المزعوم:

- **مرحبا خالتي!! كيف حالك الآن؟!**
- **أهلا بالوليد كيف حالك بني؟!**

فالتفتت أم الوليد بحدة نحوه عندما سمعت اسمه فاقتربت منه وأخذت تتفحصه بدقة، وفي تلك اللحظة وصل الجميع والتفوا حولهما، حتى رجاء التي أخبرتها رفيف بكل شيء. فقالت وهي تنظر إلى ذلك الشاب:

- **ما اسمك يا بني؟؟**
- **الوليد!**

فاغرورقت عيناها بالدموع فنظرت إليهم جميعا وقالت بتأثر شديد:

- **هل تعلمون؟؟! لوهلة كنت سأظنه ابني!**

فأخذ الوليد يحدق بها وبهم بانتظار الإشارة الأخيرة فأشارت له رفيف بعينيها، فقال لأمه:

- **هل تعلمين، أما أنا فأؤمن بأنك والدتي!!**

ففغرت فاها من وقع الكلمات عليها فأخذت تتحسس وجهه بيدها رغما عنها وأخذت تقول:

- **هل تعلم أنك تشبهه كثيرا فأنت تملك لون عينيه الزرقاوين وشعره الأسود وكل شيء...**

فقال:

- **نعم فربما أكون أنا هو!**

كانت أم الوليد في حالة تشبه الغيبوبة فقد بدأت حينها تعود إلى الماضي وتتذكر طفلها الوليد والذي لم تتخيل أنه في يوم من الأيام قد يدق باب البيت ويدخل عليهم هكذا ببساطة، لذلك لم تكن المعلومة قد وصلت لها بعد!!!

فقالت بصوت أشبه بالهذيان:

- **أتمنى لو يكون معنا الآن!**

هنا جاء دور رفيف فقالت وهي تمسك بوجه خالتها بين يديها بحنان وتركز على عينيها:

- **خالتي .... هذا هو الوليد...هذا هو ابنك!!**

فقالت وهي تبكي بحرقة:

- **رفيف أرجوك لا تمزحي معي يا بنتي، فأنت تعلمين...**
- **خالتي...حبيبتي عندما ذهبنا إلى تيكوبا قابلنا الوليد و.....**

ثم قال والدها:

- **نعم يا أم الوليد هذا هو ابنك!**

تقدم الوليد منها وقال لها:

- **أمـ..أمي.... لقد اشتقت لك.**

عندما سمعت تلك الكلمة انهار ما قد بقي من قواها فأمسكها الوليد وحملها إلى الأريكة، والجميع ملتفون حولها بقلق، ففتحت عينيها ببطء بعد دقائق ثم فتحت ذراعيها ليرتمي الوليد في حضنها وليبكي الجميع تأثرا.

بعد أن هدأت وبدأت تستوعب تلك المعجزة جلس الوليد بجانب والدته على المائدة ثم قال بسرور وهو يلتهم الفطيرة:

- **أمي، لقد أعددت لنا فطيرة الشوكولاتة والموز!**

فاحتضنته مرة أخرى ثم قالت وهي تبكي بفرح:

- **أعددتها يا نور عيني!!**

فقالت رفيف وهي تبتسم:

- **الوليد لا تنسى أن تشكرني فأنا من قال لها أن تصنعها لك!**

فضحك الوليد، فنظرت أم الوليد إلى رفيف وقالت لها:

- **كم أحبك يا بنتي!**

فسعل سوار ثم نظر إلى رجاء وقال بمرحه المعتاد:

- **ما رأيك يا رجاء... لقد ألقونا أنا وأنت على قارعة الطريق فقد بدأت الغيرة تشتعل في صدري!!**

فابتسمت رجاء، وقالت أمه:

- **يا لك من ولد ماكر!!!**

ثم سرحت أم الوليد لوهلة وقالت وهي تعبث بصحنها:

- **الوليد؟؟! كيف حال والدك؟**

فنظر إلى رفيف وكأنه يستنجد بها، ولكنها هربت بنظرها بعيدا، فأجاب وهو يضع الفطيرة التي كانت في يده في الصحن مرة أخرى:

- **أمي، لقد توفي والدي قبل سنتين.**

نظرت إليه بحزن واغرورقت عيناها بالدموع ولكنها لم تبك وقالت:

- سأذهب لأرتاح قليلا في غرفتي.

****

الفصل التاسع

- أبي دعنا نذهب في نزهة مع رفيف كما في المرة الماضية فأنا أشعر بالملل!

نظر نزار إلى أسامة بدهشة، فهرب الأخير بنظره إلى ريم وقال بشيء من الغضب:

- ريم، الآنسة رفيف ليست هنا لقد سافرت، ما رأيك أن تذهبي إلى غرفتك لترسمي فأنت لم ترسمي شيئا منذ زمن!

- ولكنني لا أحب الرسم وأريد أن...

وللمرة الأولى في حياته صرخ في وجهها بغضب:

- ريم...قلت لك اذهبي إلى غرفتك الآن.

فأخذت تبكي وتقول:

- أنت لم تعد تحبني!

نظر إلى عمته وقال لها:

- أرجوك خذيها من هنا قبل أن أفقد أعصابي أكثر!

فحملتها العمة وفاء بين ذراعيها وخرجت، فجلس أسامة على الأريكة بغضب وهو مدرك بأن نزار سيفتح معه تحقيقا مؤلما!

لكن نزار لم يقل شيئا وإنما خرج من البيت بهدوء مما حطم قلب أسامة أكثر.

بعد أن هدأ قليلا ذهب ليرى ريم في غرفتها فوجدها نائمة والعمة وفاء تجلس على طرف السرير والدموع تترقرق في عينيها، فجلس أسامة بجانبها وبأسى:

- أنا آسف.

فقالت بحزن:

- ما دخل هذه الطفلة بكل ما يجري؟

- عمتي إنها ابنتي، وهذا أمر عادي قد يحصل بين أي والد وابنته!

فقالت بتردد:

- **ولكنها ليست ابنتك وأخشى أن تقل محبتها في قلبك مع الأيام.**

فغضب أسامة من جديد وقال:

- **عمتي ماذا تقولين؟؟ ريم هي ابنتي وأنا والدها ولا يستطيع أي أحد أن ينكر ذلك فكل الأوراق الرسمية تثبت ذلك، بالإضافة إلى أنني أنا الذي ربيتها أم أنك نسيت ذلك؟؟!**

فقالت بندم وقد أدركت بأنها تفوهت بكلام لم يكن يجدر بها قوله:

- **اهدأ بني، أنا لم أقصد ذلك وإنما قلت ما قلته خوفا على ريم ولشدة حبي لها، فهذه أول مرة تصرخ في وجهها منذ أربع سنوات.**
- **أنا أعلم، ولكنني لم أرد أن تقع مشكلة جديدة بيني وبين نزار.**
- **أعتقد بأن هناك فتاة وراء ذلك الخلاف؟!**

لكن أسامة لم يجب، فقالت عمته بتأن:

- **رفيف، أليس كذلك؟؟!!**

فسألها بتعجب:

- **كيف عرفت؟؟ هل أخبرك نزار؟**

فقالت وهي تبتسم:

- **أنت تعلم بأن نزار قد عقد صحبة جيدة معي لذلك كان يخبرني بكل أسراره.**
- **وماذا قال لك أيضا؟**
- **قال بأنك تحب رفيف!**
- **أها؟؟ وماذا بعد؟؟!**
- **لم يقل شيئا آخر!**

ضغط على رأسه بكلتا يديه وقال:

- **أشعر بصداع شديد أريد أن أنام الآن.**

نام نوما متقطعا وتأنيب الضمير يكاد يقتله فخرج ليبحث عن نزار الذي كان قد أدمن التدخين بعد رحيل رفيف، بالإضافة إلى أن حالته النفسية كانت تتدهور تدريجيا فلم يعد يرى أو لا يكلم أحدا، ولم يعد يذهب إلى البيت إلا نادرا، لذلك كان يخشى أن الموقف الذي حدث قد يزيده سوءا.

كان يعلم بأنه سيجده على البحر وعندما وصل رأه جالسا على الشاطئ حيث كان يبدو عليه بأنه فاقد الإحساس بكل شيء وعيناه غارقتان في الأمواج ويده تعبث بالرمال بلا شعور، فجلس بجانبه بهدوء ثم قال:

- كيف حالك نزار؟!

فالتفت إليه ببطء ورمقه بنظرة ساخطة وتجاهله، فوكزه أسامة مداعبا، لكن نزار قال:

- ارحل من هنا، ولا تعد مرة أخرى فلا أريد أن أراك.

- نزار أر...

وقف نزار بغضب ثم انتزع السيجارة من فمه ورماها على الأرض ثم أخذ يدوسها كالمجنون وهو يصرخ:

- اذهب...اذهب ولا تعد...

فقال أسامة بسخرية وأسى في الوقت ذاته:

- هل تعرف يا نزار ... لفترة كدت أنسى من أنا!!

فالتفت إليه نزار بحدة، فأكمل أسامة قائلا:

- لقد تعبت من التكلف والهرب، فلا تزد همومي أرجوك فأنت كل ما بقي لي من الماضي ووجودك بجانبي يجعلني أقوى.... لا أنكر بأنني أخطأت في حقك ولكنني فعلا لم أقصد بأن أسرق رفيف منك...

كان نزار يزداد اشتعالا بوجود أسامة بقربه حتى فاق غضبه كل الحدود، فوقف بحدة وقال بابتسامة مخيفة:

- لم أعد أصدقك بالرغم من أنك ممثل بارع جدا لدرجة أنني فعلا نسيت من تكون أنت.... ارحل من هنا و لا تعد مرة أخرى!

****

بعد أسبوع من عودة رفيف إلى قصترم اتصل بها مسؤول دار النشر طالبا منها الذهاب إلى المطبعة التابعة لهم لاختيار شكل الغلاف للنسخة الأولى من روايتها والتي عندما تعتمدها سيكملون الطباعة ومن ثم يبدؤوا بتوزيعها على المكتبات.

أصبحت رجاء تشارك رفيف غرفتها، وفي تلك الليلة لم تستطع أي منهما النوم فقالت رجاء:

- **رفيف، هل نمت؟!**

فأجابت رفيف بهدوء وهي لاتزال تنظر إلى الجانب الآخر:

- **لا.**

- **رفيف!! ماذا بك، أشعر بأنك لست على ما يرام!**

- **لا تشغلي بالك ما من شيء مهم.**

فقالت رجاء بتأن:

- **أسامة، صحيح؟!**

فغطت رفيف وجهها، فضحكت رجاء وقالت:

- **ها قد ضربنا على الوتر الحساس!!**

فأزاحت رفيف الغطاء ببطء لتكشف عن عينيها الدامعتين، فأمسكت رجاء بيدها وقالت لها:

- **لقد اشتقت له، أليس كذلك؟!**

لم تجب رفيف ولكنها قالت:

- **لا أريد أن أذكر أي أحد من آل باكير!**

كانت رجاء تداعب شعر رفيف الكستنائي وهي تنظر إلى الفراغ، ثم قالت:

- **باكير؟؟!!! لا أدري أين سمعت بهذا الاسم من قبل!!**

فقالت رفيف باستهزاء:

- **نزار وأسامة باكير!!**

- **لا يا رفيف، سمعت به في مكان ما آخر، مكان مألوف.....لا أدري أين ولكنني سأتذكر.**

****

- **عمتي ما رأيك أن تنتقلي إلى السكن معي أنا وريم؟**

فقالت بتردد:

- **ماذا عن نزار؟!**

لا أعلم، ولكن يجب ألا تبقي وحدك في الشقة بغيابي الطويل وبغياب نزار، بالإضافة إلى أن ريم تحتاج إليك.

فسألته بقلق؟

- **وهل ستتركه هكذا؟**

- **بالتأكيد لا فهو شقيقي، ولكنني سأعطيه بعض الوقت لكي يهدأ.**

- **حسنا، افعل ما تراه مناسبا بني.**

وعندما علمت ريم بخبر انتقال جدتها للعيش معهم قالت بابتسامة عريضة:

- **هذا رائع!! وأخيرا لن أبقى لوحدي!**

فاحتضنتها العمة وفاء، ثم قالت بلا وعي وهي تنظر إلى أسامة:

- **أتمنى أراك أنت ونزار الصغير عريسين في يوم واحد!**

فوضعت ريم يديها على جنبيها وقالت باستنكار وسذاجة:

- **ماذا؟؟؟ عريسين؟؟ وكيف سيتزوج أبي؟؟!**

هنا تبلد كلا منهما وأخذا ينظران إلى بعضهم البعض بقلق، لكن أسامة ابتسم وقال وهو يربت على شعرها بعد أن وضعها في حضنه:

- **لا يا حبيبتي، كنا نتحدث عن عمك نزار فقط، ألا تريدين أن يتزوج وأن تلعبي مع أولاده يوما ما؟؟!**

بعد أن ذهبت ريم إلى غرفتها لتنام، قالت عمته بأسى بعد فترة من السكون:

- **أسامة.... إلى متى سنخفي عنها الحقيقة؟؟؟!**

****

كانت رجاء تحيك الصوف في الصالة وأم سوار مستلقية على الأريكة عندها، ورفيف نائمة في غرفتها، أما سوار فقد كان عائدا للتو من العمل فنظر إلى رجاء وقال:

- **كيف حالك رجاء؟**

فأجابت من دون أن تنظر إليه وهي تبتسم:

- بخير!

ثم سكتت وبدا عليها التوتر من يديها المرتجفتين فأوقعت كرة الصوف فناولها إياها وقال:

- لماذا تحيكين الصوف؟

- لقد تعلمت الحياكة من جدتي فأحببتها كثيرا وهكذا أصبحت أسلي بها نفسي وأصنع بعض الأشياء التي ربما لا تستطيع إيجادها في المحلات بسهولة!

سكت لفترة ثم قال وهو يبتسم ابتسامته الساحرة:

- رجاء!

كان لابد من أن ينادي عليها ليجبرها على رفع عينيها والنظر إليه فأجابت:

- نعم؟!

- هل يمكن أن تصنعي لي شيئا من الصوف؟!

فارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيها وقالت بسرور:

- بالتأكيد، هل تريد شيئا معينا؟!

- نعم، أريد مخبأ لهاتفي النقال!

- هذا رائع!! وماذا تريد لونه؟!

- مممممم، لا أعرف سأترك اختيار اللون لك!

- حسنا، سيكون جاهزا غدا.

- بهذه السرعة؟!

- قطعا!!

ثم قالت:

- سأذهب لأرى رفيف!

كان تحاول التهرب من سوار فقد كان وجوده يربكها فدخلت بانفعال إلى الغرفة، فنظرت إليها رفيف وقالت وهي تبتسم ابتسامتها الخبيثة:

- **ماذا حصل؟؟!**

فردت رجاء بارتباك:

- **لا شيء! لماذا تسألين؟؟!**
- **لا لشيء ربما فقط لأنك لست على ما يرام أبدا، فوجهك أحمر وأنفاسك أستطيع سماعها من هنا؟!**
- **أنت تتوهمين حبيبتي!**
- **حسنا كما تشائين! ولكن قولي لي ما اللون الذي ستختارينه لصناعة مخبأ الهاتف؟!**

فأجابت بلا وعي:

- **لا أدري!! فأنا لا أعلم ما اللون الذي يحبه سـ.....**

وهنا أدركت رجاء بأن رفيف قد جعلتها تزل بالكلام فقالت وهي تضحك بغضب:

- يا لك من ماكرة كنت أعتقد بأنك نائمة، ولكن على ما يبدو أن أذنك كانت معنا هناك في الصالة!

فأجابت رفيف وهي تتململ في السرير وتبتسم:

- **طبعا فأنت لم تعرفيني بعد، هذا بالإضافة إلى أنني يجب أن أطمئن على أخي!!**
- **لم أفهم!!**
- **لا عليك! فقط اعلمي بأن سوار يحب اللون الأخضر كثيرا!**

مضى الوقت سريعا و ما إن حل الليل حتى كانت رجاء قد أنهت حياكة المخبأ الأخضر، ولم يكن قد بقي سوى أن تضع زرا أو خرزة في المنتصف، فاختارت زرا أبيضا متوسط الحجم وثبتته عند الطرف ووضعت بجانبه زرا أخضرا أصغر حجما من الزر الأول.

نظرت إليها برضى عندما انتهت ووضعته على سريرها ثم أخذت توضب أغراضها استعدادا للعودة إلى فنتيل هي ورفيف بعد أسبوعين، لبدء السنة الدراسية الجديدة والتي كانت الأخيرة لكليهما.

استيقظت رفيف فوجدت رجاء وسط كومة من الجرائد فسألتها:

- **رجاء ما كل هذه الجرائد؟**
- **كنا نشتريها أثناء الدراسة، فقد كان يجب علينا أن نقرأ كل الجرائد ونحلل جميع الأخبار فيها وما إلى ذلك فهذا شيء مهم جدا لنا كصحفيين.**

تنهدت رفيف وقالت:

- **وهل يتوجب عليك الاحتفاظ بها؟!**
- **لا أدري ولكنني أشعر بأنها ستساعدني يوما ما، فهي تحوي على الكثير من المعلومات التي دونتها عليها، بالإضافة إلى أنني أحن إلى تلك الأيام أحيانا فأتصفحها!**
- **هذا جيد ولكنها تحتاج إلى صندوق خاص، ما رأيك أن نذهب لشراء واحد، فأنا أشعر بالملل.**

فقالت رجاء وهي تقف بحماس:

- **بالتأكيد!!**

****

بعد أسبوع اتصلت دار الكتاب للنشر برفيف وأخبرتها بأنهم قد بدأوا بتوزيع روايتها على مكتبات قصترم وأنه خلال يومين سيكونون قد انتهوا من توزيع الخمسة آلاف نسخة التي تم الاتفاق عليها.

كان أسامة يتتبع خبر رواية رفيف وقد ساعده في ذلك قراءته للعقد في ذلك اليوم فعرف اسم دار النشر والشروط

وعندما علم بنزول روايتها إلى الأسواق بعث الشاب الذي يعمل في الدكان إلى قصترم لشراء نسختين من روايتها ومن مكتبتين مختلفتين ليبدأ بتحضير المفاجأة لها!

وعندما تسلم النسختين احتفظ بواحدة ثم قصد أول مطبعة صادفها واتفق معهم على طباعة ألفين نسخة منها، ثم وكل ثلاثة شبان لتوزيعها على مكتبات فنتيل وقد دفع تكلفة ذلك من النقود التي جناها مقابل التبرع بكليته.

بالإضافة إلى أنه عمل على أن يحدث هذا كله قبل بدء العام الدراسي الجديد وقبل عودة رفيف إلى فنتيل وقد كلفه هذا ضعفي المبلغ.

****

- **أمي أريد أن أكلمك بموضوع!**

قال ذلك الوليد وهو يجلس بجانب أمه ويقبل يدها.

- **ماذا هناك يا نور عيني؟!**

- **أمي أريد أن أتزوج!**

فقالت بفرح وهي غير مصدقة؟؟!

- **حقا؟؟! سيكون ذلك أسعد يوم في حياتي!**

فابتسم وأخرج علبة مخملية حمراء من جيبه وفتحها ليخرج خاتمين ذهبيين منها وقال وهو يريهما لوالدته:

- **هيا إذا دعينا نكلم أهلها!!**

فقرصت أذنه مداعبة وقالت:

- **رفيف، أليس كذلك؟؟!**

فقال وهو يتأمل الخاتمين:

- **بالتأكيد وهل سأجد أفضل منها؟!**

- **طبعا لا، لقد أحسنت الاختيار يا بني.**

- **إذا متى سنكلمهم في الموضوع؟!**

- **ما رأيك غدا مساء؟!**

- **هذا جيد.**

ثم سكت وقال وقد تغيرت ملامح وجهه:

- **أمي، ولكنني أخشى بأنه يجب أن أعود إلى تيكوبا.**

****

- **رفيف! تعالي يا بنتي!**

- **حسنا يا والدي أنا قادمة!**

فجاءت وهي تجفف يديها بعد أن انتهت من غسل الصحون، فجلست بجانب والدها، فابتسم وقال:

- **أغمضي عينيك!**

فقفز قلبها من الفرح وقالت:

- **لماذا؟! هل هناك مفاجأة؟!**

- كفاك كلاما يا فتاة وأغلقي عينيك وحسب.

فأغلقت عينيها فأخرج والدها شيئا من جيبه ثم قال لها:

- افتحي الآن!

ففتحت عينيها لترى مفتاح سيارة يتدلى من يد والدها فاحتضنته وطبعت قبلة على جبينه وانطلقت لتراها.

كانت السيارة مركونة أمام البناء، وما إن رأتها حتى كاد قلبها يطير من الفرحة فقد حصلت وأخيرا على سيارة أحلامها، كانت صغيرة نوعا ما، لونها أزرق كلون عينيها، ومن الداخل فقد كان لون المقاعد رماديا.

أمضت ما يقارب الربع ساعة وهي تتأملها وتتفحصها ثم أغلقتها جيدا وتأكدت من ذلك خمس مرات على الأقل ثم صعدت إلى البيت وقلبها مفعم بالسرور.

بعد ذلك تناولوا العشاء معا وبعد أن انتهوا قالت أم الوليد:

- بعد إذنك يا أبا سوار أريد أن أتحدث معك بموضوع.

فقال باهتمام:

- بالتأكيد؟!

فقالت رجاء:

- سأذهب لأرتاح في الغرفة!

فنظرت إليها أم الوليد وقالت:

- لا يا ابنتي لا تذهبي فليس الأمر بسر!

فجلست مرة أخرى وسكت الجميع بانتظارها لتبدأ، فقالت وهي تنظر إلى رفيف وتبتسم:

- فرحتي لم تكن توصف عند عودة ابني لي سالما بعد تلك السنوات ولكن فرحتي هذه لن تكتمل إلا عندما أرى ابني عريسا.

هنا بدأ قلب رفيف ينتفض وأخذت تدعو الله بأن لا يكون الأمر كما بدأت تعتقد، ولكن عندما أكملت أم الوليد كلامها.....

- يشرفني يا أبا سوار أن أطلب يد ابنتك رفيف لابني الوليد، فأنا لن أجد زوجة مناسبة لابني أكثر منها!

سقط الكأس من يدها، ولكن لم ينكسر وإنما تدحرج حتى وصل عند قدمي الوليد الذي نظر إليها بدهشة ممزوجة بقلق!

فقال أبو سوار:

- **هذا يشرفنا نحن أيضا يا أم الوليد وأنا لا أمانع أبدا، ولكن يجب علينا أن نأخذ رأي العروس!**

نظرت إلى والدها بحدة وهي تضغط بشدة على مفتاح السيارة الذي كان لايزال في يدها لكن من دون أن تنطق بحرف ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب بعنف وأخذت تبكي بحرقة.

فابتسم والدها وقال:

- **لا بد من أنها شعرت بالخجل!**

انسحبت رجاء بهدوء وذهبت إلى الغرفة لترى رفيف، والتي ما إن رأتها حتى ارتمت في حضنها وقالت لها وهي تشهق:

- **أنا لا أريد أن أتزوج من الوليد فأنا لا احبه إنه مثل أخي سوار تمام!! أنا أحب أسامة!**

****

الفصل العاشر

- أردت أن أستفسر عن رواية الرجل الرمادي ماذا حصل بطباعتها، هل انتهت؟
- بالتأكيد وغدا صباحا سنقوم بتوزيعها على المكتبات!

فصفر أسامة بحدة وربت على كتفه وقال:

- شكرا لك!
- سيد أسامة، منذ زمن لم تكتب شيئا جديدا!

فتلعثم أسامة ثم ابتسم وقال:

- لا يغرك هذا فأنا بصدد نشر رواية رائعة عما قريب!

تنهد بعمق وهو يخرج من المطبعة وحمد الله بأنه استطاع التخلص من ذلك المأزق بسهولة، ولكنه بدأ يخشى من الآتي فقد كثرت التساؤلات في الآونة الأخيرة عن سبب انقطاع روايات الكاتب المشهور أسامة باكير منذ فترة طويلة جدا.

****

في اليوم التالي استيقظت رفيف باكرا فعزمت على الخروج قليلا لكيلا تسمح لأحد بأن يكلمها بموضوع زواجها من الوليد، فبدلت ثيابها وأخذت مفتاح سيارتها وخرجت بهدوء، ولكن وما إن وصلت عند باب الشقة حتى جاء صوت الوليد:

- صباح الخير رفيف، أين ستذهبين في مثل هذا الوقت؟

ارتبكت عندما رأته فابتسمت رغما عنها وقالت:

- سأذهب لأجرب السيارة قليلا!
- هل يمكن أن آتي معك؟

ففتحت باب الشقة وقالت من دون أن تنظر إليه:

- أود قضاء بعض الوقت لوحدي!

ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها لتترك الوليد وسط ذهول تام!

عادت في الظهيرة وبعد أن بدلت ثيابها وجلسوا على المائدة للغداء، قالت:

- خالتي أم الوليد!

فأجابت وهي تسكب للوليد الطعام في صحنه:

- نعم يا بنتي.

فنظرت رفيف إلى أبيها ثم قالت:

- كما تعلمين خالتي فإن هذه آخر سنة لي في الجامعة لذلك يجب أن أبذل قصارى جهدي فيها و ألا أنشغل بأي شيء آخر....

ثم وقبل أن تعطي فرصة لأحد على الاعتراض، نظرت إلى الوليد وقالت:

- ولكن بالرغم من ضغوطات الدراسة التي سأواجهها فإنني لن أفرط بعريس مثلك!!

فوقفت اللقمة في حلقه وأخذ يسعل فضرب على صدره بقوة حتى استطاع أن يتكلم فقال وهو لا يكاد يصدق أذنيه:

- هل...هل هذا يعني بأنك وافقت؟!

ولكنها لم تقل شيئا وإنما أزاحت كرسيها إلى الوراء وانسحبت من المائدة بهدوء فأخذت أمها وخالتها تزغردان فرحا، وقال أبو سوار للوليد:

- مبارك يا ولدي!

أما رجاء فقد كانت في حالة ذهول تام فذهبت إلى الغرفة حيث رفيف وجلست على الكرسي تنظر إليها بهدوء، فقالت رفيف بأسى:

- ماذا هناك؟؟! لماذا تنظرين إليَ؟!

- لماذا فعلت ذلك؟!

فصاحت رفيف وهي تبكي:

- فعلت ماذا؟؟

- رفيف اعتقدت بأنك لا تحبيه!

- **ومن قال لك بأنني غيرت رأيي؟؟! أم أنك تعتقدين بأنني بدلت قلبي في ليلة وضحاها؟!**

فقالت رجاء بانفعال:

- **إذا لماذا وافقت؟؟!**

- **لا أدري؟!**

- **تريدين النيل من أسامة أليس كذلك؟!**

نظرت إليها رفيف بطرف عينيها وبدأت بالضحك كالمجانين بصورة هستيرية، ثم بعد ذلك أخذت تبكي وقالت:

- **نعم أريد النيل من أسامة!**

****

قال الوليد لزوج عمته:

- **كما تعلم يا عمي فإن رفيف ستعود إلى فنتيل بعد أربعة أيام، فما رأيك أن نقيم حفلا صغيرا بمناسبة عقد خطوبتنا؟**

ولكن رفيف قاطعته وقالت:

- اسمح لي أبي، ولكنني لا أريد احتفالا وما شابه، يكفي فقط أن نرتدي الخواتم.

استغرب الوليد لقلة حماسها ولكنه قال:

- **حسنا كما تشائين، ولكن هناك شيء آخر يجب أن أخبركم شيئا!**

فجلست رفيف مرة أخرى بعد أن كانت تهم بالذهاب، فقالت وهي تقوس حاجبيها:

- **ماذا هناك أيضا؟**

- **أنتم تعلمون بأنني أعيش وأعمل في تيكوبا، لذلك كنت أفكر بأن أعود إلى هناك مع رفيف ووالدتي بعد عقد القران.**

كانت رفيف تريد أن تضحك لسذاجته ولبساطة تفكيره فقالت بسخرية:

- **وهل تعتقد بأنني سأقبل بهذا؟!**

فنظر إليها باستغراب ثم قال محاولا أن يُفهِمَها ويَفهَمَها:

- رفيف أنا أعلم بأن ابتعادك عن أهلك سيكون صعبا عليك ولكنني متأكد بأنك ستعتادين على الأمر، وأنا أعدك بأن نأتي لزيارتهم في الإجازات السنوية.

ثم ابتسم وقال مداعبا:

- ثم ألا يكفي أن تكوني بجانبي؟!

وقفت بغضب وهي تحدث لنفسها: أي جرأة يتصف بها، ثم قالت له:

- الوليد، أرجوك اسمعني أنا لن أوافق على هذا أبدا ولن أعيش في تيكوبا وإن كان عملك أهم من سعادتي فاذهب هناك لوحدك فأنت لم تصبح خطيبي بعد ولم يحدث شيء بيننا حتى الآن!!

ثم قالت وهي تبتسم باستهزاء:

- مازلنا على البر!!

فصرخ والدها عليها قائلا:

- رفيف كفى!!

فقالت بغضب وهي تبكي:

- أبي أرجوك! أنا أقول لكم هذا من الآن لتفهموا جميعا بأنني لن أقبل بالزواج به إن أصر على قراره هذا!

فقفز على الفور من مقعده ووقف بجانبها وقال لها:

- حسنا لا تغضبي، وأعدك بأنني لن أفعل أي شيء يزعجك.

ثم تنهد وقال:

- وإن لم تريدي الذهاب إلى تيكوبا فلك ذلك، ولن يستطيع أحد أن يجبرك!

فقالت وهي تشعر بنشوة الانتصار:

- وعملك؟

- لا يهم، سأبحث عن وظيفة في أحد المشافي هنا أو في فنتيل، هل هذا جيد؟!

أجابت من دون اهتمام:

- نعم!

ثم ذهبت إلى غرفتها حيث كانت تنتظرها رجاء، فقالت رفيف قبل أن تتفوه رجاء بأي كلمة:

- رجاء.... لست مستعدة لسماع محاضرة منك الآن.

****

بعد يومين من خطوبة رفيف وفي نهاية شهر آب تحديدا، كانت الفتاتان تحزمان حقائبهما استعدادا للعودة إلى فنتيل للبدء بالعام الدراسي الأخير، حيث كانت رفيف في الخارج تنتظر رجاء، فنادت عليها:

- هيا يا رجاء أسرعي!
- حسنا، ثوان وسأكون عند الباب.

نظرت رفيف إلى الصندوق الذي يحوي جرائد رجاء وقالت:

- لا تنسي هذا أيضا.

ساعدهم سوار والوليد في وضع الحقائب في سيارة رفيف، ثم همس الوليد لرفيف:

- سأشتاق لك!

ابتسمت كممثلة بارعة وقالت:

- وأنا أيضا!

****

رن هاتفها فتوترت عندما رأت الاسم على الشاشة فسألتها رجاء:

- من؟!
- إنه نزار!

فقالت رجاء:

- ولماذا لا تجيبين؟!
- لا أدري!!

فهزت رجاء رأسها دلالة على أن تصرف رفيف لم يعجبها ثم قالت:

- **يجب أن تردي عليه لكيلا تشعريه بأنك لازلت تفكرين بما حصل، وليتأكد بأن كل ذلك أصبح من الماضي، فأنت مخطوبة الآن وكل شيء سيتغير، أليس كذلك؟**

فنظرت رفيف إلى الخاتم في يدها اليمنى ثم قالت وهي تبتسم بأسى:

- **من كان يتوقع بأنني سأعود بعد ثلاثة أشهر بخاتم في يدي!**

عاود نزار الاتصال بعد فترة قصيرة فردت عليه بمرح مصطنع:

- **أهلا نزار!**
- **كيف حالك رفيف؟!**
- **بخير وأنت؟!**
- **في أحسن حال!**
- **وكيف كانت الإجازة؟ هل ذهبت إلى مكان ما؟!**
- **لا لقد قضيتها هنا إلى أن قتلني الملل!!**

فابتسمت رفيف ثم قالت:

- **إذا أراك غدا.**

فصفقت رجاء بعد أن أغلقت رفيف الهاتف وقالت:

- **أرأيت لم يحدث شيء، وغدا عندما يرى الخاتم في يدك سينتهي كل شيء!**

فقالت رفيف بأسى:

- **ويخبر أسامة بالأمر.**

فقالت رجاء:

- **أهذا كل ما يهمك؟؟! أن يعرف أسامة؟؟!**

فنظرت إليها رفيف بشيء من الخوف وقالت:

- **ربما!**

فاقتربت منها رجاء وقالت لها بهدوء لم تتوقعه رفيف:

- **رفيف صدقيني أنا أفهمك تماما ولكن الوليد يستحق معاملة أفضل من ذلك!**

فأمسكت رفيف بيدها وقالت وهي تنظر إلى الخاتم:

- **نعم أعلم! أعدك بأنني سأحاول!**
- **هذا جيد.**

ثم ربتت على كتفها وقالت:

- **هيا دعينا نكمل ترتيب الأغراض.**

****

كان نزار قد عقد العزم على أن يتعامل مع رفيف بشكل طبيعي جدا وأن يحاول أن يكسب قلبها مرة أخرى، لذلك عندما رآها في صباح اليوم التالي في الكلية سلم عليها وقال وهو يبتسم:

- **رفيف!!**

فابتسمت وقالت وهي تبعد شعرها عن عينيها محاولة أن تريه الخاتم:

- **مرحبا نزار.... لم أرك منذ زمن، كيف حالك؟**

أدركت بأنه لم ينتبه للخاتم فتظاهرت بأنها تتثاءب ووضعت يدها اليمنى على فمها، وقالت باستحياء مصطنع:

- **لم أنم جيدا ليلة البارحة!**

لكن نزار لم يرد عليها وإنما كانت عيناه متسمرتان على يدها وعلى الخاتم في إصبعها فابتسمت بانتصار وأدركت بأنها قد بلغت هدفها. أما هو فقد شعر بأنه في كابوس فظيع فمسح وجهه بكلتا يديه بقوة عله يفيق إلا أن بريق الخاتم كان لا يزال يخطف نظره، فتنهد بحزن عميق وأشار إلى يدها بتردد وقال:

- **مب.... مبارك!!**

فابتسمت متصنعة الخجل ثم قالت:

- **شكرا لك!**

ثم أكملت:

- **لقد حصل كل شيء بسرعة!**

فسأل بحذر وهو مطرقا رأسه ربما لكيلا ترى دموعه:

- **هل أعرفه؟!**

فاكتفت بإجابة مختصرة لتشعل النار أكثر:

- **لا!**

وبعد أن بلع ريقه قال لها وهو يبتسم بصعوبة وهو لا يزال ينظر إلى الأرض:

- أتمنى لك السعادة من كل قلبي!

وهذه المرة وبدلا من أن تذهب هي، أدار هو ظهره وذهب وهو على يقين بأن رفيف قد طارت منه للأبد، حتى قبل أن تصبح له!

****

الفصل الحادي عشر

كانت رفيف ورجاء في طريقهما إلى البيت بعد عودتهما من الكلية فقالت رجاء:

- **أريد أن أشتري دفترا جديدا، فالصحفي من دون أوراق وأقلام لا يساوي شيئا!**

لم تعلق رفيف، فأدركت رجاء بأن هناك خطب ما فسألتها:

- **ماذا حصل؟!**

فقالت رفيف وهي تنظر إلى الأرض:

- **لقد أخبرت نزار!**

فقالت رجاء:

- **ولماذا أنت حزينة هكذا؟! ألم يكن هذا الذي تريديه؟!**

فقالت بأسى:

- **نعم!**

- **رفيف حبيبتي.... لا تحزني!**

ثم قالت رجاء لتغير الموضوع وهم يقتربون من دكان أسامة:

- **سأعرج على دكان أسامة لأشتري دفترا جديدا، هل تريدين واحدا؟؟!**

فوقفت رفيف وقالت بدهشة وقلبها يخفق بشدة:

- **ماذا قلت؟؟! إلى أين ستذهبين؟**

فأعادت رجاء ما قالته ببساطة:

- **سأدخل لأشتري دفترا، فهذا الدكان هو الأقرب لبيتنا، انتظريني هنا إن شئت!**

وقبل أن تعترض رفيف كانت رجاء قد دخلت إلى الدكان، عندما رآها أسامة أغلق ذلك الدفتر الأزرق الذي كان يكتب فيه وأخذ ينظر إليها بدقة محاولا أن يتذكر أين رآها فقال ليجبرها على النظر إليه:

- **تفضلي آنستي، كيف أستطيع أن أساعدك؟!**

فقالت بتلعثم:

- أريد دفترين لو سمحت.

فوضع لها الدفترين في كيس وناولها إياه، فنظرت إليه وسألته:

- كم الحساب؟

حينها تذكرها فقال بلهفة:

- أنت صديقة رفيف، صحيح؟!

فارتبكت وأدركت بأنها قد وضعت نفسها في موقف لا تحسد عليه، فأخذت تحدق فيه متظاهرة بالنسيان، ولكنها ابتسمت فجأة وقالت:

- آه أنت السيد أسامة!

- كيف حالك وكيف حال رفيف؟!

- بخير!

- هل عادت إلى فنتيل؟!

فأجابت بتأن:

- نعم، البارحة!

فانفرجت أساريره وقال بسعادة:

- حقا؟!

لم تقل شيئا وإنما هزت رأسها، ثم أخذت الكيس منه وشكرته لتنهي ذلك اللقاء، ولكنها قبل أن تخرج قال لها:

- أبلغي صديقتك سلامي!

كانت رفيف تشتعل غضبا في الخارج، وعندما رأت رجاء سحبتها من يدها ومشت بسرعة نفاثة وعندما ابتعدتا عن الدكان وقفت وسألتها لها:

- هيا أخبريني ماذا حصل هناك ولماذا تأخرت؟؟!

فابتسمت رجاء وأجابت:

- لقد طلب مني أن أوصل لك سلامه!

****

- **أسامة... أسامة!!**

جاء صوت نزار حادا مخيفا يكاد يزلزل جدران الدكان، فوقع قلب أسامة من القلق، وبيد مرتبكة سكب لنزار كأسا من الماء، إلا أن نزار أزاحها عنه بسرعة مما أدى إلى سقوطها على الأرض وقال وهو يلصق أسامة بالحائط، والذي كان لايزال يمسك بزجاجة الماء بيده:

- **أنت السبب في ذلك أيها الـ...!**

سأله أسامة بقلق:

- ماذا هناك يا نزار؟!

- **رفيف...رفيف ستتزوج!**

كانت لا تزال زجاجة الماء في يد أسامة والتي كان من المتوقع بأن تقع من يده وتنكسر، ولكنه أزاح نزار بهدوئه المعتاد ووضعها على الطاولة وقال وهو يخرج من الدكان:

- **إذا أتمنى لها السعادة!**

فلحق به نزار وأداره بقوة نحوه ثم صرخ قائلا:

- **ماذا قلت؟؟! أأنت مجنون؟؟! أم أنك لم تعد تسمع؟! لقد قلت لك أن رفيف ستتزوج!**

- **بلى سمعت..**

ثم ضحك ضحكته الهستيرية وأكمل وهو يمرر يده على أثر الخياطة في جانبه الأيسر:

- **أنا أسمع يا أخي ولكنني لم أعد أشعر!!**

فقال نزار بغضب:

- **أنت مجنون!!**

- **ربما!!**

بعد أن هدأ قليلا، أمسك أسامة هاتف الدكان وضغط على رقم رفيف وما إن سمع صوتها حتى شعر بأن قلبه يكاد ينفجر من شدة الخفقان.

- **ألو، نعم؟**

فغير صوته وقال:

- **آنسة رفيف؟**
- **نعم! من معي؟**
- **أدعى زيد!**

****

- **رجاااااء!**

جاءت الأخيرة على عجل وقالت:

- **ماذا هناك لقد أفزعتني!**
- **رجاء، روايتي...**

ثم بلعت ريقها وأكملت:

- **روايتي في فنتيل!**

فاحتضنتها رجاء بفرح وقالت:

- **يا إلهي كم هذا رائع!**

لكنها قالت وهي تنظر إليها:

- **ولكن رفيف.... كيف؟!**

ابتسمت رفيف وقالت وهي تهز كتفيها:

- **لا أدري!!**
- **إذا كيف عرفت أن روايتك في...**

قاطعتها بحماس:

- **لقد اتصل بي أحد المعجبين وقال لي..**

فصفقت رجاء وقالت:

- **معجب؟؟!**

ضربتها رفيف بخفة مداعبة ثم قالت:

- **يدعى زيد ...لقد نسيت كنيته، المهم، اتصل بي وقال بأنه أحد المعجبين بروايتي، فسألته من أين حصل عليها فأجاب بأنه اشتراها من إحدى مكتبات فنتيل فقلت له بأن هذا مستحيل إلا أنه ضحك وقال لي، (ثم أخذت تقلد صوته):**
- **آنسة رفيف، لقد أصبحت مشهورة!! فروايتك اقتحمت كل مكتبات فنتيل!!**

ثم أكملت وهي تبتسم:

- **لا أكاد أصدق!**

فقالت رجاء وهي تدخل إلى الغرفة:

- **ماذا تنتظرين؟! دعينا نذهب لنتأكد بأنفسنا!**

****

بعد أسبوع أخبر الوليد رفيف بأنه سيأتي إلى فنتيل لرؤيتها، حاولت رفيف أن تشعره بأنها اشتاقت له وبأنها تنتظره بفارغ الصبر، لذلك عندما أتى محملا بالهدايا والورود وطلب منها أن يخرجوا لتناول الغداء لم يكن باستطاعتها أن ترفض ذلك!

- **رجاء أنا آسفة لأنني سأتركك وحدك!**

فغمزتها رجاء وقالت وهي تناولها حقيبتها:

- **لا تقولي هذا، هيا اذهبي واستمتعي بوقتك!**

فقبلتها رفيف وخرجت هي والوليد في سيارتها الزرقاء والتي لم تكن تسمح لأي كائن بقيادتها حتى هو!

فسألها مداعبا:

- **إذا إلى أي مطعم ستقومين بدعوتي؟!**

فابتسمت وقالت من دون التعليق على كلمته الأخيرة:

- **هناك مطعم يطل على البحر سنذهب إليه....ما رأيك؟!**

- **هذا رائع!! لا بد أن المنظر خلاب من هناك!**

لكنها لم ترد عليه فقد كان عقلها وقلبها في مكان آخر ...هناك على البحر مع أسامة وريم...

أحس بشرودها وقال:

- **هل هناك خطب ما؟؟!**

فقالت بارتباك:

- **لا..لا**

- **رفيف...هل أنت سعيدة؟؟!**

ازداد انغلاق قبضتها على مقود السيارة وأجابت:

- **أنت ماذا ترى؟!**

فسكت قليلا ثم قال:

- **أنا لا أرى شيئا فأنت بنيت حاجزا بيني وبينك أو بالأحرى بيني وبين عينيك، ولكنني أستطيع أن أشعر...**

فقاطعته وهي تنظر إلى البحر:

- **ها قد وصلنا!**

ركنت السيارة في المكان المخصص ثم قادت الوليد إلى مكان المطعم، فقال بمرح وهو يجلس على الكرسي مقابلها:

- **هذا مكان رائع جدا!**

فابتسمت وقالت محاولة تلطيف الجو بينهما:

- **رائع بوجودك!**

فابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- **حقا؟؟!**

نظرت إليه وهزت رأسها ثم قالت:

- **هل تذكر تلك الأيام عندما كنا صغارا، كنت أنت و سوار تأسرانني و ..**

ضحك وقال:

- **وتخسرين دائما!!**

فهزت رأسها دلالة على النفي وقالت:

- **أنا لم أكن أخسر وإنما كنت تجبرني على الخسارة!**

- **وهل هناك فرق؟!**

- **بالتأكيد!**

جاء النادل ليدون طلباتهما وبعد أن انتهى قال لها:

- **ما رأيك أن نتمشى قليلا على البحر إلى أن يجهز الطعام؟**

كانت مترددة في القبول ولكنها وأخيرا قالت له مع ابتسامة رائعة:

- **بالتأكيد!**

أما رجاء فقد تناولت غداءها لوحدها وبعد أن انتهت لم يكن لديها شيء معين لتقوم به فأخرجت كل الجرائد من الصندوق الأزرق الذي اشترته لها رفيف، وأخذت تقرأ ما دونته عليها والتعليقات التي كان زملاؤها يكتبونها بالإضافة إلى اللمسات الفنية المضحكة التي كانوا يضيفونها إلى وجوه الأشخاص!!

كانت رجاء قد بدأت بالاحتفاظ بهذه الصحف منذ أول سنة من دراستها، وبالرغم من كثرتها وتمزق بعضها فإنها لم تكن ترمي أيا منها.

وبما أن رفيف لم تعد بسرعة فقد كانت تملك الوقت الكافي لتصفح معظم تلك الجرائد وبينما هي تقرأ وتتذكر وتضحك، قرأت عنوان خبر كتب بالخط العريض في أحد الصفحات فأمسكت الجريدة والتي كان يعود تاريخها إلى عام ١٩٩٧ باهتمام أكبر وأخذت تقرأ ذلك الخبر مرارا وتكرارا، وعندما انتهت صاحت قائلة:

- يا إلهي الآن تذكرت أين سمعت بآل باكير!!

****

- **أبي!**
- **نعم حبيبتي؟!**
- **هل تذكر عندما أتينا إلى هنا مع رفيف؟!**

تجمدت ملامحه وتغير لونه، فابتسم وقال لريم:

- **نعم أذكر!**

ثم انطلقت لتلعب على الشاطئ بعد أن ألقت ذلك السؤال البريء عبئا على أسامة تاركة إياه غارقا في بحر الذكريات.

وهو على حاله هذه استيقظ على صوتها بعد دقائق:

- أبي...أبي!

فقال من دون أن يلتفت:

- **ماذا هناك أيضا؟!**

فقالت بمرح:

- **إنها رفيف...هناك!**

لم يكد يصدق أذنيه فقال بلهفة وهو يحمل الصغيرة بين ذراعيه:

- **أين؟؟!!**

فأشارت بإصبعها الصغير إلى رفيف والوليد وقالت:

- **هناك!**

شعر بتشنج في جميع عضلات وجهه عندما رأى الوليد معها وقد أدرك بأنه خطيبها المزعوم لذلك قرر بأنه يجب عليه أن يكدر صفوه!!

فقال لريم وهو يقبلها:

- **اسمعيني حبيبتي.... سأذهب لألقي التحية على الآنسة رفيف ولكن انتظريني أنت هنا، اتفقنا؟!**

- **حسنا أبي!**

ذهب بخطوات ثابتة نحوهما وعندما اقترب بما فيه الكفاية استجمع كل قواه وصاح بمرح مصطنع:

- **رفيف!!!**

أدارت رأسها لتستقر عيناها على وجهه، كاد قلبها يقفز فرحا، وشعرت بأن كيانها قد انقلب رأسا على عقب

لذلك لم تجب، فقال أسامة وهو يكاد يشتعل غيظا:

- **يبدو أنك نسيتني آنستي!!**

فتلعثمت قائلة وهي تضع النظارة الشمسية على عينيها:

- **لا سيد أسامة، أنا آسفة ولكنني لم أتوقع أن...أراك...هنا!**

نظر إلى الوليد نظرة ازدراء ثم قال:

- **مرحبا سيد.....!**

وقبل أن يسمح له أسامة بالكلام، نظر إليها وقال:

- لم تعرفيني على.....

فقالت بعجلة ومن دون تفكير:

- **إنه الوليد!**

فأشار أسامة بيده دلالة على أنه يريد شرحا أكثر، فقال الوليد وقد بدأ يضيق ذرعا منه:

- **أنا خطيبها!**

ثم أمسك يدها بكلتا يديه وابتسم لإغاظة أسامة!

استطاع أسامة أن يتحكم بغضبه فضحك وقال لرفيف:

- **يا للروعة لم أكن أعلم بأنك خطبت!**

فسأله الوليد بضيق:

- **ومن تكون أنت؟!**

ولكن قبل أن يجيب قالت رفيف بسرعة:

- إنه يعمل في وزارة الإعلام وقد قابلته هناك وعملنا معا على روايتي!

فقال الوليد:

- **ولكنني ظننت بأنك تعاقدت مع دار الكتاب في قصترم وليس هنا!!**

فقال أسامة بغضب:

- **وأنت ما دخلك أين نشرتها ومع من تعاقدت؟!**

فاقترب الوليد منه وكاد أن يضربه إلا أن رفيف صاحت:

- **الوليد دعنا نذهب أرجوك!**

فألقى نظرة سخط على أسامة ثم ذهب وهو يتأبط ذراعها.

أخذ أسامة يضحك ضحكته الهستيرية ثم صاح قائلا قبل أن يبتعدا:

- رفيف!!

فالتفتت إليه والدموع تترقرق في عينيها، فقال لها:

- أنت لي!

****

الفصل الثاني عشر

- أرجوك اهدأ قليلا، فلم يحصل شيء!

نظر إليها بغضب ثم قال وهو يجاهد ليبقى صوته منخفضا:

- لم يحصل شيء!! رفيف أخبريني الآن كل شيء!

- يا إلهي!! لقد قلت لك بأنه كان بيننا عمل وهذا كل شيء!

أمسك يدها وقال لها:

- ظننته قال (أنت لي)!

فاخضر وجهها واحمر واصفر، ولكنها ابتسمت وقالت:

- ما أوسع خيالك!!

- إذا ماذا قال؟!

- لا أعرف، صدقني لم أسمع جيدا ولكنني متأكدة من أنه لم يقل ذلك!

ثم ابتسمت بخبث وقالت:

- ربما شتمك!!

فتجهم وجهه، فضحكت وقالت:

- دعنا ننسى ما حصل أرجوك، اتفقنا؟!!

- حسنا ولكنني لم أحب ذلك الشخص مطلقا!

فابتسمت وقالت وهي تسحب يدها من يده:

- لا بأس، هيا دعنا نتناول الطعام قبل أن يبرد.

- رفيف!

فنظرت إليه ولأول مرة تقابلت عينيها مع عينيه فقال لها:

- أتمنى أن ننجب أطفالا لهم نفس لون عينيك!

فقالت:

- **هل نسيت بأن لون عينيك أزرق مثلي؟!**

فضحك وقال:

- **لا!! ولكن لون عينيك أجمل!!**

فابتسمت وقالت:

- **يا لك من مخادع!**

عندما حل المساء أوصلها الوليد إلى البيت وعاد هو إلى قصترم، وفور دخولها إلى البيت نادت على رجاء:

- **رجاء!!**
- **مرحبا رفيف، قبل أن تقولي أي شيء هناك خبر لك!**
- **ماذا؟!**
- **هل تذكرين عندما قلت لك بأنني سمعت باسم باكير من قبل؟!**

انتفضت عندما سمعت بآل باكير فقالت وهي تخلع معطفها بسرعة:

- **نعم، لماذا؟!**

فناولتها رجاء تلك الجريدة، فقالت رفيف وهي تمسكها:

- **ما هذه؟!**
- **هذه صحيفة يعود تاريخها لعام ١٩٩٧!**

فنظرت إليها رفيف بحدة فقالت لها رجاء بصبر نافذ:

- **هيا اقرئي الخبر المكتوب في الصفحة الثانية.... بسرعة!**

ففتحتها رفيف وبدأت تقرأ بصوت مرتفع:

حادث سيارة يودي بحياة فرد من آل باكير

وفاة الرسام زيـــد بـــاكير

جريدة السلام،

الثامن و العشرين / تشرين الأول 1997:

وقع حادث مروري صباح أمس على الطـريق الســـريع بين باشـتيل وفنتيل أودى بحياة الرسام زيد باكير الشقيق الـتوأم للكـاتب المعروف أسامة باكير.

شهود عيان أكدوا بأنهم رأوا زيد باكير في الســيارة صبـــاح أمس وأنه كان يقود بسرعة كبـــيرة لدرجة أنه تخطى إشارة مـرورية ليصطدم بشاحنة بعـد فقدان السيطرة على السيـارة.

وصلت سيارة الإســعاف و الشـــرطة في غضـون دقائق و تم نقله إلى المشـفى ولكنهم مـــا إن وصلوا حتى كـــان زيد قد فارق الحـــيـــاة.

مع ساعات الظهر الأولى من اليوم الثاني وصل أفـــــراد العائلة وسط حيرة الشرطة حول سبب تأخرهم في الوصول إلى المشفى.

هكذا انتهت حياة الرسام زيد باكير على صوت بكـاء مؤلم وصدمة ربما ليس من السهل تخطيها.

****

أصاب رفيف دهشة كبير، فأسامة لم يحدثها أبدا بأن له شقيق توأم، فشعرت بأن هناك جزءا غامضا في قصة آل باكير، بالإضافة إلى أمر الرجل الرمادي الذي أرادت أن تعرف سر اهتمام أسامة به، فأخذت تملأ رأس رجاء بحل هذه القضية...

- **رجاء ألا تحلمين بأن تصبحي صحفية مشهورة؟!**

فنظرت إليها نظرة حالمة ولكنها لم تجب، فأكملت رفيف:

- **رجاء...ما رأيك أن تعملي على قضية آل باكير؟!**

فقالت رجاء بحدة:

- مـــاذا؟؟؟!

رجاء اسمعيني، أنا متأكدة بأنك لم تقتنعي بالخبر الذي نشر قبل أربعة أعوام في تلك الصحيفة وأنك تعتقدين كما أعتقد أنا بأن هناك حلقة مفقودة من هذه القصة!! وإذا استلمت هذه القضية وحللتها فستصبحين أشهر من نار على علم.....

ثم سكتت رفيف قليلا ثم تابعت قائلة:

- لا أخفيك بأنني أريد أن أعرف أنا أيضا وإلا فإنني سأموت من الفضول والشك! ولكنني أعدك بأنني سأساعدك وأقف بجانبك حتى النهاية، ولكن أرجوك وافقي.

كانت رجاء تستمع بهدوء إلى رفيف كالأطفال الذين يستمعون إلى قصة رائعة، مأخوذة بكلامها الذي كان حلمها الأبدي، فقالت:

- أنت تقدمين لي حلمي على طبق من ذهب يا رفيف!!

فقفزت رفيف بجانبها وقالت والابتسامة تملأ شفتيها:

- هذا يعني بأنك وافقت!

وفورا جلست الفتاتان على الأرض وسط كومة الجرائد، وأخذتا تبحثان في كل الصحف مرة أخرى علهما تجدان شيئا قد يثبت نظريتهما!

****

كان أسامة يحاول أن يهدأ فقد كان لا يزال غاضبا بعد رؤيته للوليد، فخرج من الدكان حتى قادته قدماه إلى البحر بلا شعور فجلس هناك لوحده وأخذ يفكر بما حدث وما يحدث وما سيحدث!

كان يتألم بشدة فهو لم يعد حيا منذ أربع سنوات!! فكل شيء قد تغير، وفي غمضة عين أصبح أبا لطفلة، وفي ليلة وضحاها أصبح كاتباً لا يفقه بالأدب والروايات شيئا بعد أن كان يعشق الرسم!!

مضى الوقت سريعا من دون أن يشعر حتى حل المساء وتوارت الشمس، فتمدد على الشاطئ فوق الرمال وأغلق عينيه وغفى على صوت هدير البحر!

بعد فترة قصيرة استيقظ وفرك وجهه بيده، ثم تلفت حوله وعندما وقعت عيناه عليها بجانبه كاد قلبه يقف!!

فحك عينيه بقوة وقال وهو يضحك:

- لابد أنني أحلم!

فقالت بهدوء:

- هل تريد أن أصفعك لكي تفيق؟!

فاعتدل وجلس بجانبها وأخذ يتأملها بعينيه وبقلبه وبكل جوارحه، فقالت له وهي تغرق في عينيه:

- كيف حالك؟!

لكنه لم يجب، فابتسمت وأشاحت بوجهها عنه فقال لها:

- ماذا تفعلين هنا لوحدك!

- مثل الذي تفعله أنت...لوحدك!

فقال بسخرية:

- وأين خطيبك المصون؟!

فنظرت إليه بطرف عينيها وقالت وهي تعبث بخاتمها:

- وما دخلك أنت؟!

لم يجب، وهي كذلك فضلت الصمت، فلفهما السكون الذي كان يتخلله صوت حركة الأمواج ثم وفجأة أمسك بيدها اليمنى بخفة فانتفضت، وقبل أن تحاول نزعها من يده سحب الخاتم من إصبعها وأغلق قبضته عليه بقوة، فصاحت:

- ما الذي فعلته؟؟! أعد لي خاتمي الآن!

فضحك وقال:

- لا تحلمي عزيزتي!

وقبل أن تحتج وتثور، قال لها:

- هل تحبيه!

فأجابت بغضب:

- نعم أحبه!

فابتسم وقال وهو يقلب الخاتم بين يديه:

- كاذبة!

لم تعلِق وإنما قالت له بهدوء:

- أعد لي الخاتم لو سمحت!

لكنه لم يجب وقال لها:

- رفيف، كيف جرت العملية؟؟!

فابتسمت رغما عنها وقالت:

- لن تصدق ما الذي حدث؟!

- ماذا؟!

- لم أخضع أنا للعملية، هناك شخص آخر تبرع لأمي بكليته!

فقال مصطنعا الدهشة والفرح:

- حقا؟؟! هذا رائع، ولكن من يكون هذا الشخص؟!

- هذا ما لا أعرفه، كنت أتمنى أن أراه وأشكره ولكنهم أخبروني بأنه غادر المشفى!

فقال وقد اطمئن إلى أنها لا تعرف شيئا:

- ليس مهما، المهم أن تكوني أنت بخير وبأمان!

ثم أكمل:

- وكيف حال أمك الآن؟!

- أفضل بكثير.

وفجأة كعادتها ألقت السؤال الخطير عليه:

- أسامة باكير...ماذا حدث في ذلك اليوم؟!

فقال مستغربا:

- أي يوم؟!

- في الثامن والعشرين من تشرين الأول قبل أربع سنوات؟! فأنت لم تخبرني من قبل بأنه لديك شقيق توأم!

فقال بحدة وتوتر:

- ماذا تقولين؟؟!رفيف لن أسألك كيف عرفت بهذا الأمر أو من أين، ولكنني أرجوك بألا تتكلمي فيه مرة أخرى فقد جئت إلى هنا لكي أنسى، فلا تذكريني.

فشعرت بأن هناك حزنا عميقا لايزال في قلبه فقالت باستسلام:

- **حسنا، أنا آسفة، وعلى كل .....**

فتنهد وقال:

- **ربما في يوم ما أخبرك بكل شيء!**

فابتسمت وقالت له باستهزاء:

- **نعم، كما وعدتني من قبل بأن تخبرني بكثير من الأشياء، أليس كذلك!**
- **آه يا إلهي ارحمني!**
- **حسنا أنا آسفة!**
- **رفيف، لماذا وافقت على الارتباط بالوليد؟!**
- **ربما لأنه ضحى بكل شيء من أجلي، ليس مثل ذلك الـ....**
- **من؟!**
- **لا أحد!**
- **لا، هيا أكملي، أخرجي ما في قلبك!**
- **حسنا، لأنه يحبني بكل ما أوتي من قدرة على الحب، ولأنه تخلى عن حياته في تيكوبا وعاد إلى قصترم لأجلي ولأنه مستعد لفعل أي شيء لإسعادي ليس مثلك أنت، هربت واختفيت عند أول مشكلة واجهتنا وبدل أن تقاتل لأجلي، قاتلتني وقاتلت حبي لك ورحلت هكذا ببساطة!**
- **رفيف.... إنه أخي!**

فقالت بغضب:

- **وأين أخوك الآن؟! أنا متأكدة بأنه لم يكن يحبني ولن يحبني، فهذه مجرد نزوة وستثبت لك الأيام ذلك!**
- **رفيف.... سامحيني!**
- **سأحاول ولكنني لا أضمن لك ذلك!**
- **ومتى ستتزوجين؟!**
- **في الصيف المقبل، أي بعد أشهر قليلة!**

ثم تابعت بقسوة:

- **وبالتأكيد ستكون أول المدعوين!**

فبدأ يضحك ويضحك بجنون فقالت له:

- **كفى توقف!**

لكنه لم يأبه بها فلم يكن يستطيع السيطرة على نفسه فعلى صوته وتغيرت نبرة ضحكته حتى أصبحت مخيفة، فصاحت:

- **أسامة كفى!**

فقال وهو لا يزال يضحك:

- **لماذا؟؟! هل أخفتك عزيزتي؟!**

فصرخت وهي تقف والدموع في عينيها:

- **أنا أكرهك!**

فأمسك يدها وشدها بقوة لتجلس على الرمال مرة أخرى ثم قال لها وهو يلتقط أنفاسه ويحكم قبضته على الخاتم بيده:

- **وأنا أكرهك لدرجة أنني وفي يوم زفافك سأختطفك، أعدك بذلك!**

****

الفصل الثالث عشر

عقدت رفيف العزم على أن تستخدم كل الوسائل لحل لغز آل باكير لذلك قررت أن تبدأ بنزار فاتفقت معه بأن يلتقيا بعد المحاضرة في كافتيريا الجامعة لتناول الغداء!!

ففغر فاه من الدهشة فلم يكن يتوقع أنه في يوم من الأيام قد تطلب رفيف منه مثل هذا الطلب، فأجاب بتردد:

- بالتأكيد هذا من دواعي سروري!

لم تشعر رفيف بتأنيب الضمير أبدا، ربما لأنها كانت تؤمن بأن نزار لم يحبها يوما!

قال لها:

- أشعر بأن هناك شيء ما تخفيه؟!

فقالت وهي تضحك عمدا:

- ما أوسع خيالك يا صديقي!

وهكذا حاولت بأن تدخل في الموضوع مباشرة ولكن من دون أن يشعر نزار، فبدأت بالحديث عن والدتها وسوار وشيئا فشيئا تشجع نزار وأخذ يتكلم، فسألته:

- هل لديك إخوة غير أسامة؟!
- نعم!
- حقاً؟!

فأجاب بأسى:

- واحد فقط!
- لا بد من أنه يشبهكم أيضا!

فهز رأسه بالإيجاب ثم ابتسم وقال:

- إنه شقيق أسامة التوأم!

كان لابد لرفيف أن تصبح ممثلة عوضا عن كاتبة لاستطاعتها التحكم بتعابير وجهها كما تريد، فرسمت علامات الدهشة على قسمات وجهها بكل سهولة وقالت وهي تبتسم:

- لم أكن أعلم أن لأسامة شقيق توأم! هذا رائع! أخشى أن أراه في يوم من الأيام وأظنه أسامة!

فنظر إليها نزار وتغير لون وجهه وقال:

- لا...لا تخافي لن يحصل شيء كهذا أبدا!

فقالت بغباء مصطنع:

- إذا لابد من أنهما لا يشبهان بعضهما البعض، أليس كذلك؟

فضحك رغما عنه وقال:

- بلى إنهما متشابهان جدا لدرجة أن أمي كانت أحيانا تجد صعوبة في التفريق بينهما!

- يا إلهي لقد حيرتني نزار!

فقال نزار ببساطة ممزوجة بالحزن:

- لقد توفي منذ أربع سنوات!

لم تقل شيئا، فقال وهو يبتسم بسخرية لغاية في نفسه:

- لذلك لا تقلقلي لن تظنيه أسامة أبدا!

- أنا آسفة نزار لم أكن....

- لا بأس!

فحمدت الله بأنه قاطعها لكيلا تضطر لاختلاق كذبة أخرى!

ثم قال:

- كان اسمه زيد!

- هل تشتاق إليه؟!

فصمت قليلا ثم ابتسم وقال:

- لا أدري! فهذه قضية معقدة يصعب فهمها أو بالأحرى حلها، دعك منها!

لم تشأ أن تصر على الأمر لكيلا تزيد من حزنه ولكيلا يشك في أمرها، ولكنها عزمت على أن تأخذ أكبر قدر ممكن من المعلومات منه قبل رحيلها إن شاء أو أبى!

فقالت بعد برهة وهم يتناولون الطعام:

- كيف توفي شقيقك؟

سقطت الملعقة من يده لوقع السؤال، فابتلع اللقمة بصعوبة ثم قال:

- في حادث سيارة!
- هل كان لوحده؟!
- نعم.
- حسنا كيف توفيت زوجة أسامة؟
- ما دخل هذا بهذا؟؟!! رفيف إلى ماذا تريدين الوصول؟!

فقالت رفيف بحذر وقلبها يدق بسرعة:

- لا شيء ولكنني.... حسنا لا شيء وأنا آسفة إن سببت لك الحزن، لم أقصد ذلك.

بعد فترة صمت قصيرة قالت لتزيل التوتر:

- هل أعجبك الطعام؟

لكنه لم يجب على سؤالها وإنما قال وهو ينظر بعيدا:

- زوجته لم تمت!

رفعت رأسها بحدة وقالت باستنكار ممزوج بالرهبة:

- مااااذا؟!! أسامة قال لي بأنها...

فضرب الطاولة بيده وقال بغضب:

- تبا لأسامة ولما يقوله أسامة!!

هنا بدأت رفيف تخاف، وتمنت لو أنها لم تتصل بنزار ولم تقابله، فهي لم تعد تريد حل لغز ولا شيء، تريد فقط أن تبتعد عن هذه العائلة المشؤومة!

أحس نزار بضياعها وذعرها، فابتسم باستهزاء وقال:

- أهذا ما جئت من أجله؟

فقالت وهي ترتجف:

- يجب أن أذهب الآن...

لكنه قاطعها قائلا بتجهم:

- لم أكن أعلم بأنك تستغلين مشاعر الناس بهذا السوء، يبدو بأنني خدعت بك...أتساءل لماذا وافقت على الارتباط بخطيبك فأنا لا أعتقد بأنك تحبيه، أشعر بأن هناك ما تسعين وراءه، يا لك من محتالة آنستي!

نزلت كلمات نزار كالصفعة على وجهها، كانت تشعر بالبرد الشديد، كانت تحتقر نفسها أيضا، بدأت الدموع تتجمع في عينيها من هول ما عرفت وما سمعت، فأزاحت مقعدها إلى الخلف وقالت بصوت مملح بدموعها:

- أنا آسفة جدا.

ثم ذهبت بسرعة، وهي تعلم بأن نزار لن يلحق بها هذه المرة!

دخلت إلى البيت حيث كانت رجاء غارقة في التفكير لدرجة أنها لم تنتبه لوصول رفيف، وفي المقابل لم تنتبه رفيف لوجودها أو ربما نسيت بأن رجاء تقيم معها، فدخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح، حينها انتبهت رجاء لوصول رفيف وأحست بأن هناك شيء ما قد حصل معها، فطرقت الباب لكن رفيف لم تجب وكل محاولات رجاء العابثة في فتح الباب ومحادثة رفيف لم تفلح، إلى أن جاء أخيرا صوت رفيف ضعيفا متقطعا من وسط الحجرة المعتمة:

- اتركيني لوحدي..... أرجوك.

كانت تبكي بحرقة وألم شديدين، تمنت لو باستطاعتها أن تعاقب نفسها لما فعلت، فقد ارتكبت شيئا فظيعا ولكن ربما عن غير قصد فقد جرحت نزار وربما خسرت صداقته إلى الأبد، ترى لماذا لا نقدر هؤلاء الأشخاص الذين يحبوننا إلا بعد أن نفقدهم بسبب أخطائنا وعجرفتنا! ولماذا كذب عليها أسامة؟ لماذا أخبرها بأن زوجته قد توفيت؟

أخذت تتمتم وهي تبكي:

- نزار سامحني، أعترف بأنني أخطأت في حقك مرات كثيرة، ولكنني لست سيئة...أنا لست فتاة سيئة!

قضت اليوم التالي أيضا معزولة عن العالم الخارجي فلم تكلم رجاء أبدا وأغلقت هاتفها ولم تعد تجيب على أحد ولم تذهب إلى الكلية، هكذا قررت بأنها تستحق العقاب!

لم تجد محاولات رجاء في معرفة ما حدث منها، ولكنها عندما رأتها خارجة من غرفتها في اليوم التالي اقتنصت الفرصة وقالت لها بمرح لم تكن تعلم بأنه سيدمر صديقتها:

- رفيف... احزري ماذا جرى البارحة؟؟!

سكتت قليلا علها تشد انتباه رفيف ولكنها عندما رأت قسمات وجهها لا تتغير، فأكملت بهدوء:

- تحدثت البارحة مع د. كامل وهو أفضل أساتذتي في الكلية وأنا أثق به كثيرا، شرحت له قضية باكير بطريقة تثير فضوله، ثم أخبرته بأنني أريد أن أبدأ بالتجهيز لمشروع التخرج وأنني اخترت هذه القضية للعمل عليها.

هنا التفتت إليها رفيف بحدة وقالت لها بغضب وهي تشدد على كلماتها:

- لا أريد سماع اسم هذه العائلة مرة أخرى، أرجوك!

ذهلت رجاء من ردة فعلها ولكنها صمتت وقررت الالتزام برغبة رفيف، وفعلا هذا ما حصل.

قررت رفيف بأن تمحو كل أفراد هذه العائلة من ذاكرتها وحياتها وأقسمت بأنها ستخلص للوليد وتعيد حياتها إلى أقصى نقطة قبل أن تتعرف إلى أسامة، كانت تعلم بأنها ستتألم كثيرا، ولكن هذا ما يجب عليها فعله.

لذلك وبعد عدة أيام بدأت تعود إلى طبيعتها تدريجيا، أما رجاء فلم تسألها عن شيء، وقررت بأن تساند صديقتها وتذعن لرغبتها لذلك لم تخبرها بأنها ستواصل العمل على قضية آل باكير.

اتصلت بالوليد الذي كان قلقا عليها:

- رفيف.. هل أنت بخير؟ لماذا كان هاتفك مغلقا؟

فابتسمت:

- لا تخف، كان معطلا وقد أخذته إلى أحد المحلات لإصلاحه هذا كل شيء!

فتنهد براحة وقال:

- هذا جيد اعتقدت بانه قد أصابك مكروه.

فسألته بدلال:

- هل خفت علي!!

ابتسم هو أيضا وأجاب:

- كثيرا...واشتقت لك أيضا؟

فقالت بدون تردد:

- إذا ماذا تنتظر؟ لماذا لا تأتي إلى هنا؟!

****

- الوليد!

نظر إليها بحنان ثم قال مبتسما:

- أمرك سيدتي!
- أنا آسفة!

فرفع حاجبيه باستغراب وسأل:

- على ماذا؟!

فهزت كتفيها ثم أجابت:

- لا أدري...فقط هكذا!

ثم قالت بتردد:

- ما هي أخبار عملك؟

تنهد بحذر ثم قال وهو يخفي ضيقه:

- قريبا سيصبح كل شيء على ما يرام
- أنت لست سعيدا في قصترم، أليس كذلك!
- لا يهم، المهم أن تكوني سعيدة!
- الوليد...هل تريد العودة إلى تيكوبا؟

فنظر إليها باستغراب ولكنه لم يجب.

فقالت ببطء وأنها تفكر:

- إن أردت العودة فلك ذلك، سأذهب معك، فأنت تعلم بأنه لم يبق لي سوى خمسة أشهر وأنهي دراستي، حينها بإمكاننا أن نسافر.

صاح بسرور:

- أحقا عزيزتي؟

فابتسمت وهزت رأسها بالإيجاب دلالة على الموافقة أو ربما التأكيد!

- الوليد، أريد أن أخبرك بشيء ولكن عدني بألا تغضب!

فرفه حاجبه ثم ابتسم وقال:

- لن أغضب من خطيبتي أبدا!

فابتلعت ريقها ثم أردفت:

- **حسنا، لقد أضعت خاتمي! أنا آسفة!**

بعد ثوان من الصمت رفع رأسه ونظر إليها، ثم قال:

- **لا عليك، سنشتري غيره غدا.**

وهكذا بدأت رفيف صفحة جديدة من حياتها فقد ركزت تفكيرها على دراستها، مشروع تخرجها والوليد.

صفحة خالية من نزار وأسامة باكير لدرجة أنها لم تعد تتقابل مع نزار أو تتحدث إليه أبدا، ولم تعد تخرج من البيت إلا نادرا لكيلا ترى أسامة، الذي علمت بأنه حصلت مشكلة كبيرة بينه وبين نزار عندما علم بلقائه الأخير برفيف وبالحديث الذي دار بينهما، فاتصل بها كثيرا لكنها لم تجب عليه، وانتظرها بالقرب من الدكان لكنها أيضا لم تظهر لذلك قرر بأن يتركها قليلا، ولكنه أقسم بأنه لن يضيعها من يديه مرة أخرى، وهذا ما لم تعرفه رفيف.

أما رجاء فقد كانت منهمكة هي الأخرى في تحضير مشروع تخرجها والذي لم يكن سوى قضية زيد باكير، وقد حرصت أشد الحرص على ألا تعرف رفيف بذلك.

كانت وبمعاونة د. كامل قد حصلت على ملفات المشفى الذي دخله زيد باكير قبل أربعة سنوات، وحصلت أيضا على سجلات الشرطة التي دون فيها أقوال أفراد العائلة في ذلك اليوم، كانت رجاء قد بدأت تقترب من حل اللغز والنشوة تدغدغ أعماقها، فهي تريد بذلك أن تساعد رفيف أيضا.

****

- **إلى أين أنت ذاهبة في مثل هذا الوقت المبكر؟؟**

سألتها رفيف بصوت كسول وهي لاتزال تتوسد سريرها في صباح عطلة نهاية الأسبوع.

فأجابتها رجاء على عجل:

- **لن أتأخر!**

ثم جاء صوت باب الشقة يغلق تاركا رفيف وسط دهشة من تصرف رجاء.

خلال خمس دقائق فقط وصلت رجاء إلى هدفها..... إلى دكان أسامة فقد كانت تريد دليلا واحدا على استنتاجاتها التي توصلت إليها بعد دراسة كل الأوراق والمعلومات التي حصلت عليها، دخلت إلى الدكان بثقة وبابتسامة كبيرة جدا حتى يخيل للناظر بأنها غير طبيعية!

- مرحبا سيد..... أسامة!

فالتفت إليها بدهشة بعد أن تعرف على صوتها ولكنه لم يقل شيئا!

فسعلت عن قصد حيث أحست بأنها أثارت مشاعر غير جيدة فيه، ثم قالت:

- أريد دفترين وأربعة أقلام زرقاء وظرفين بنيين لو سمحت!

أطال النظر إليها ثم قال:

- كيف حال رفيف؟

لم تتوقع هذا السؤال، أو بالأحرى كانت تتهرب من تحضير الإجابة عليه، لذلك وقعت في موقف لا تحسد عليه كما في المرة الماضية، فأجابت باقتضاب وهي تنظر على مكتبه بتركيز:

- بخير....

- متى ستتزوج؟

أطرقت رأسها ثم قالت:

- سيد أسامة هل لي بالأغراض التي طلبتها لأنني في عجلة من أمري إذا سمحت!

- حسنا أخبريني بالتاريخ فقط!

- الثاني والعشرين من آب.

ثم سألها بحزم:

- أين؟

- في قصترم!

- شكرا لك!

ثم التفت نحو الأرفف ليجلب لها الدفاتر والأقلام التي أرادتها، أما هي فقد كانت تبحث عن شيء آخر، عن ذلك الدفتر الأزرق، دفتر مذكراته، الذي رأته مرة يكتب فيه، فجالت بنظرها عن قرب هذه المرة وانفرجت أساريرها عندما لمحته، ولكن أسامة التفت حينها وناولها الكيس، ففكرت بسرعة وقالت وهي تضرب جبينها بكفها:

- **أوه...لقد نسيت ذلك! لقد طلبت مني رفيف أن أشتري لها دفترا! هلا أحضرت لي واحدا لها لو سمحت على ذوقك!**

فابتسم أسامة وأجاب:

- **بالتأكيد!**

وهنا أدركت رجاء بأن خطتها قد نجحت وبأنها ستشتت انتباهه إلى أن تستطيع أخذ دفتر مذكراته والذي استطاعت الحصول عليه ووضعه في الكيس الذي في يدها بخفة وبسرعة رهيبة!

ابتسمت برضا لإنجازها مهمتها ثم أخذت دفتر رفيف المزعوم وشكرت أسامة، وأطلقت سيقانها للريح قبل أن يكتشف أمرها، وحينها حمدت الله بأنه لا يوجد بابا لدكانه!!!

****

الفصل الرابع عشر

مذكرات زيد باكير.....

الرابع عشر من مايو ١٩٨٨، التاسعة صباحا:

اليوم هو حفل تخرجنا أنا وشقيقي أسامة من المدرسة... الجميع مشغولون بتجهيز الثياب والحلوى.. أمي قالت لي البارحة بأنها ستقيم حفلا صغيرا عندما نعود إلى البيت.

الوقت يمضي بطيئا...أسامة لايزال نائما ونزار الصغير لم يعد من المدرسة بعد.

لا أدري لماذا أشعر بالاكتئاب...ربما لأنني أتمنى وجود والدي معنا اليوم.... ربما لأنني أفتقده كثيرا...

آآآه.... ها قد بدأنا...ها هي أمي تنادي عليّ لا بد أنها تريد مني جلب بعض الأغراض لها!!

لا أدري متى ستعتدل كفة الميزان، فأسامة لا يغادر السرير، وأنا المغلوب على أمري الذي ينالون منه دائما!!!

الرابع عشر من مايو ١٩٨٨، الثانية وسبع وعشرون دقيقة فجرا:

كان الحفل رائعا جدا..

لا أدري لماذا أشعر بالسعادة عندما لا يستطيع الناس التفريق بيني وبين شقيقي أسامة!

حتى أمي أحيانا كانت لا تميز بيننا فلم يكن هناك علامة تفرقنا سوى شيء واحد فقط، هو أن اسمه أسامة وأنا اسمي زيد!!!

كنا نستمتع بهذا كثيرا فكم من المرات تبادلنا الأدوار والشخصيات حتى الامتحانات! لكن لا تخبروا أحدا!!

خلد الجميع إلى النوم حتى نزار المسكين الذي نام وهو يبكي معترضا على ذهابه إلى المدرسة حتى الآن!!!

السابع من أيلول ١٩٨٨، الخامسة عصرا:

لم أكتب خلال إجازة الصيف ربما لأنني لم أجد شيئا مهما لأكتبه أو ربما لأنني لم أجد الوقت لذلك..

بعد أن ظهرت النتائج وقد كانت متطابقتا لكلينا – جيد جدا- سجل أسامة في إحدى جامعات فنتيل ليدرس الأدب العربي فقد كان مولعا بالكتابة بالرغم من أنه لم يكن يكتب مذكراته...

أما أنا فقد سجلت في معهد للرسم هنا في باشتيل لسببين أولهما أنني أحب الرسم ولطالما أثارت لوحاتي التي كنت أرسمها إعجاب الآخرين، والسبب الثاني هو أنني لم أشأ أن أبتعد عن أمي ونزار أو أن أتركهما لوحدهما.

بدأت الدراسة منذ يومين، وحتى الآن كل شيء يجري على ما يرام...إلا أنني أفتقد أسامة كثيرا.

الثلاثون من أيار ١٩٨٩، السابعة والنصف مساء:

اليوم كان آخر يوم في امتحانات نهاية السنة الأولى...ولم يبق لي سوى سنتين وأتخرج، أما أسامة فبعد أسبوع سينهي امتحاناته ويعود هو الآخر إلى هنا...ولكن المسكين لا تزال سنوات ثلاث بانتظاره.

أما نزار فقد أنهى امتحانات الصف السادس الابتدائي قبل أسبوعين ولا زال يحتج على كونه صغيرا وأنه قد مل الذهاب إلى المدرسة!!!

الحادي عشر من حزيران ١٩٩٠، الثالثة صباحا:

البارحة وصل أسامة إلى باشتيل بعد أن أنهى امتحاناته النهائية.

جلست معا وتحدثنا كثيرا فقد كان هناك الكثير من الأشياء التي حدثت لكلينا منذ لقائنا آخر مرة، أخبرني بأنه تعرف على فتاة تدعى ديما معه في الكلية وأنه معجب بها، وأنه عقد العزم على الارتباط بها بعد أن يكوّن نفسه، لذلك قرر بأن يبدأ مشروعا صغيرا ويبدأ بالعمل من الآن ليستطيع جمع النقود.

فقلت له ضاحكا: الحب وما يفعل!!!

الثامن من شباط ١٩٩١، التاسعة وخمس وأربعون دقيقة صباحا:

قبل عدة أشهر بدأت السنة الدراسية الجديدة والأخيرة لي....

اتصل بي أسامة اليوم وأخبرني بأنه تسلم وظيفة بسيطة هناك في دكان صغير، يملكها رجل كبير في السن، يدعى العم صالح، وقد اتفقا على الأجر الذي يرضي كلا الطرفين.

أما نزار فعلى وشك إنهاء الصف الثامن...لقد بات شابا ولم يعد يتذمر من الذهاب إلى المدرسة..... هذا لا يعني بأنه أصبح يحبها وإنما كان قد بدأ يفهم بأنه أصبح رجل البيت في غياب أسامة، وببقائي المتقطع في البيت بسبب الدراسة والمعهد.

أما أنا فقد قررت أن أفتتح معرضا للوحاتي التي كنت قد رسمتها منذ التحاقي بالمعهد والتي أثارت إعجاب البروفيسور...آملا بأن أكسب شهرة واسما من الآن عل ذلك يسهل من توظيفي عندما أتخرج.

فكما تعلمون فأنا مولع بالرسم وبالفن، ولطالما حلمت بأن أصبح رساما مشهورا وأن أرسم لوحات كبيرة وأن أوقع عليها، بالتأكيد لن أستخدم اسمي الحقيقي، لماذا؟ لا أعرف، ولكنني لاحظت بأن معظم الفنانين يوقعون بأسماء مزورة ويستخدمون ألقابا، لذلك سأوقع باسم (الرجل الرمادي)!! أليس هذا رائعا؟!

حدثت أمي بالموضوع فقالت بأنها على استعداد لتجهيز الحديقة الخارجية لي لأعرض لوحاتي فيها، وتطوع نزار بترتيب المكان، أما أنا فقد تكفلت بالتوصية على الزينة وجلب المسامير والأخشاب وكل ما يلزم...

آمل بأن ينجح معرضي وإلا فإنني سوف أصاب بخيبة أمل كبيرة!

الثامن عشر من نيسان ١٩٩١، الثانية عشر بعد منتصف الليل:

لا أدري ماذا أكتب ولا أدري أأكتب هذا أم لا؟؟!

حصل الذي كنت أخشاه...لم يحضر سوى القليلين إلى المعرض...أصبت بإحباط وإحراج شديدين.

حضر عشرة أشخاص فقط من بينهم رسام في معهدي! أما الباقون فهم مجرد أناس عاديين ربما جاؤوا من الملل!!

شعرت أمي بحزني فحاوت رفع معنوياتي بطريقة غير مباشرة...فقد كانت تفتخر أمام الناس بي...ولازمت ذلك الرسام طوال فترة وجوده ولم تنفك عن محادثته عني وعن موهبتي.

لكن ما رفع معنوياتي حقا هو تمسك أحد الزبائن الذي كان في زيارة من مدينة تيكوبا، بإحدى لوحاتي ورغبته بشرائها، رغم أن هذه الفكرة لم تطرأ على بالي ولم أكن يوما لأفرط بلوحة واحدة، ولكن بسبب إصراره وإلحاحه الشديدين وافقت وبعتها له بثمن عال لم أتخيل يوما أن أستلمه دفعة واحدة!!!

بعد ذلك المشهد الدرامي اشترى شخصين آخرين لوحتين أيضا بنفس المبلغ تقريبا!!!

ربما أكون قد حصلت على المال الكثير ولكنني لا أضمن أن أكون قد حصلت على الاسم الذي أريده، فهل أصبح الرجل الرمادي مشهورا بعد هذا المعرض؟ لا أظن ذلك!

التقطت الكثير من الصور اليوم، للحديقة وللوحات ولي ولأمي ولنزار وهو يرتدي بدلة سوداء، حتى الطاولات وزجاجات العصير والماء صورتها...ربما لأنني أحب جمع الذكريات كثيرا!

الرابع والعشرين من تموز ١٩٩٢، السابعة والثلث مساء:

وأخيرا تخرجت بتقدير ممتاز.

لازلت أبحث عن وظيفة مناسبة وأتمنى أن أحصل عليها قريبا....

عاد أسامة إلى فنتيل اليوم رغم أن إجازته لم تنته بعد ولكن صاحب الدكان كان قد طلب منه ألا يتأخر لأنه بحاجته.

شعرت بالضيق لرحيله فلم أعد أراه كثيرا ولم أعد أعرف عنه الكثير منذ سفره إلى فنتيل...

بقي لنزار ثلاث سنوات ويتخرج من المدرسة .... صدقوني فهو يعد السنوات بالأيام والشهور والساعات فلو سألتموه متى ستتخرج يا نزار، سيجيبكم بثقة وبنصف ابتسامة: بعد ثلاث سنوات وشهر و أربعة أيام وسبع ساعات!!!!

أما أمي فقد اشتركت بعمل تطوعي قبل ثلاثة شهور ربما من الملل والفراغ، وهو حياكة الملابس في أحد المصانع ثم توزيعها على المحتاجين.

الأول من آب ١٩٩٢، الثامنة وخمس وخمسون دقيقة مساء:

لم تكن رغبتي يوما هي أن أعمل معلما، ولكن قبل أسبوعين حصلت على وظيفة جيدة نسبيا وبمرتب لا بأس به في إحدى المدارس كمدرس لمادة الفن!

الثالث عشر من حزيران ١٩٩٣، الحادية عشر مساء:

عدنا البارحة مساء من فنتيل فقد ذهبنا جميعا لحضور حفل تخرج شقيقي أسامة.

بعد الحفل ذهبت معه ليريني الدكان والتي كانت أصغر بكثير مما توقعت فلم تكن تكفي سوى لوقوف زبون واحد!!

والأغرب من هذا أنها لم تكن تملك بابا!! فسألت أسامة عن السبب فأجابني قائلا: أنت تعلم بأن هذه الدكان ملكا للعم صالح وأنه ورثها عن أبيه. لكن أباه توفي قبل أن يكمل بناءها وقبل أن يبني لها بابا، لذلك ولشدة حبه لأبيه لم

يعدل على بناء الدكان شيئا منذ أن استلمها!! والأغرب من ذلك أنه خلال العشر سنوات التي عمل فيها بالدكان لم يسرق شيء منها!!

شعرت بالدهشة لهذه القصة الدرامية ولكنني أحببتها!

قضينا تلك الليلة في شقته والتي تتكون من غرفتين وصالة والتي تقع بالقرب من الدكان.

أخبرني أيضا بأنه خلال السنتين التي عمل فيهما في الدكان قد جمع مبلغا جيدا من النقود وأنه سيبدأ بالتقديم على وظائف بأسرع ما يمكن فور استلامه شهادته فهو لم يعد يطيق الانتظار ولا يريد أن تفلت ديما من بين يديه.

وقال لي أيضا بأنه على وشك أن ينهي روايته وسيعمل على نشرها.

أتمنى له التوفيق والسعادة من كل قلبي، فربما أصبح يوما شقيق الكاتب المشهور أسامة باكير!!!!!

السادس من أيار ١٩٩٤، الرابعة عصرا:

اتصل بي أسامة قبل دقائق وكان يلهث ويتكلم بسرعة فلم أفهم شيئا، لكنني لم أخف من وقوع مكروه له، فقد كان يلهث من فرط السرور، فقد تمت طباعة روايته ونشرها، ووزعت على مكتبات فنتيل.

سألته عن ديما، فأخبرني بأنه سيفاتح والدتي بالموضوع قريبا!

العاشر من أيلول ١٩٩٤، السابعة وعشر دقائق مساء:

اتصلت بأسامة لأطمئن عليه فقد أخبرني قبل ثلاثة أسابيع أن أحد دور النشر قررت التعاقد معه بعد أن لاقت روايته رواجا كبيرا وسمعة رائعة، فأخبرني بأنه سيوقع العقد معهم بعد بضعة أيام، وبهذا فإن أي رواية يكتبها ويريد نشرها هم سيتكفلون بكل المصاريف على أن تكون لهم نسبة من الأرباح، وقال أيضا بأنه قدم على وظيفة في مؤسسة الإعلام والثقافة هناك ولازال ينتظر الرد.

أما أنا فحالي لم يتغير غير أنهم أعطوني علاوة الشهر الماضي.

حياتي باتت مملة ورتيبة...أقضي النهار في المدرسة ومساء بين مذكراتي ولوحاتي.

ترى متى سيحدث أمرا خارقا للعادة يحول حياتي للأفضل؟؟!

السادس عشر من تشرين الثاني ١٩٩٤، الثالثة فجرا:

أمي توفيت اليوم صباحا...

لا أستطيع كتابة المزيد!!

الثامن عشر من نيسان ١٩٩٥، السابعة صباحا:

لم أعد أستطيع النوم جيدا بعد رحيل والدتي، حتى نزار الذي كان يعتبر نفسه شابا كبيرا، بات ينام في غرفتي كالأطفال، وبالرغم من أنه بعد ثلاثة أشهر سيتخرج من المدرسة إلا أنه لم يكن سعيدا، لذلك لم يعد يحسب موعد الحفل لا بالثواني ولا حتى بالأيام، كم أشفق عليه فقد كان صديق أمي الأول وطفلها المدلل.

بعد غد هو يوم زفاف أسامة، فقد حدث أمر خطبته بسرعة، حيث ذهبنا أنا ونزار إلى فنتيل لخطبة الفتاة من عمتها وفاء والتي تقيم هناك، والتي كانت من قام برعاية ديما بعد وفاة والديها.

كان وضع أسامة قد تحسن خلال الأشهر الماضية فقد كان بصدد نشر روايته الثانية بالإضافة إلى أنه قد تسلم الوظيفة في مؤسسة الإعلام والثقافة.

التاسع من أيار ١٩٩٥، الحادية عشر والنصف مساء:

اليوم تخرج نزار من المدرسة بتقدير ممتاز!! فقد كان أكثر ذكاء واجتهادا مني أنا وأسامة.

كان سعيدا ولكن سعادته كان يشوبها شيء من الحزن لشوقه لأمي، لكنه لم يطلع أحدا بذلك.

اصطحبته بعد ذلك أنا وأسامة وزوجته -واللذان كانا قد وصلا إلى باشتيل منذ أسبوعين- إلى أحد المقاهي لنحتفل بنجاحه.

أهديته لوحة رسمتها له وعندما فتحها صفر بحدة من الدهشة والفرح، ثم قال وهو يصفق بانفعال: إنه أنا! كم أنت رائع يا زيد... أقصد أيها الرجل الرمادي!

نعم لقد رسمته وكان الرسم متقنا جدا، في الحقيقة لم أكن أعلم بأنني قادر على رسم الوجوه والأشخاص بهذه الدقة!!

السابع والعشرين من آب ١٩٩٥، الرابعة فجرا:

لم أكن أتخيل بأنني سأبقى وحدي هكذا فجأة...فقد سافر نزار اليوم إلى فنتيل بعد أن سجل في إحدى جامعاتها.

سجل في تخصص الهندسة الكهربائية.... وفقا لرغبة أمي، فقد كانت تقول له دائما أتمنى أن أراك مهندسا مثل أبيك، لذلك التحق بالهندسة بالرغم من أنه لم يكن يحبها!

ومن حسن حظه أنه وجد شقة خالية في نفس بناية أسامة هناك في فنتيل، هكذا سأكون مطمئنا عليه.

أما أسامة فقد أصبح كاتبا معروفا، أصدر روايتين جديدتين وتم توزيعهما في فنتيل وباشتيل أيضا.

الجميع تغيرت حياتهم إلا أنا، لازلت أقبع هنا وحدي يلفني السكون والهدوء.

الخامس عشر من نيسان ١٩٩٦، العاشرة صباحا:

اتصل بي نزار اليوم وقال إنه سيأتي هو وأسامة وزوجته وعمتها وفاء لزيارتي مساء وسيقضون بضعة أيام معي قبل بدء امتحانات نزار.

كدت أطير من الفرحة فقد كنت فعلا أكاد أصاب بالجنون من الوحدة والملل.

الثالث والعشرين من نيسان ١٩٩٦، السابعة وعشر دقائق مساء:

كان نزار يشتكي من الدراسة وأنه يفكر بتغيير تخصصه إلى فرع المحاسبة، لم أعترض على ذلك فقد كنت أعرف مدى صعوبة ممارسة شيئا مكرها، فشجعته على ذلك!

كانت ديما زوجة أسامة حاملا في آخر أشهرها، أي أنني عما قريب سأصبح العم زيد!!! كم هذا رائع!

العمة وفاء كانت إنسانه رائعة وطيبة جدا شعرت بالراحة بوجودها ولكلامها ربما جاءت كهدية في حياتنا لتعوضنا عن غياب أمي.

الثامن من حزيران ١٩٩٦، الخامسة صباحا:

اليوم سأذهب إلى فنتيل لأقضي إجازتي هناك مع عائلتي، ولأرى ابنة أخي الصغيرة ريم والتي ولدت قبل أسبوع!

وقد أخبرني أسامة بأن أستغل الفرصة وأحاول البحث عن عمل هناك ليجتمع شملنا.

السادس والعشرين من آب ١٩٩٦، الخامسة والنصف عصرا:

اتصل بي قبل أربعة أيام مدير معهد الرسم في فنتيل وأخبرني بأن أذهب للمقابلة بعد أن قدمت طلبي.

خلال ساعات كنت هناك في فنتيل أمام باب المعهد فلم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

مرت المقابلة على أحسن وجه، وشعرت باستحسان المدير، هناك شعور جيد يراودني حيال هذا.

الخامس من أيلول ١٩٩٧، الثانية ظهرا:

اتصل بي نزار اليوم صباحا وأخبرني بأنه قد غير تخصصه إلى المحاسبة فهو يهوى الأمور المالية والحسابات وقد بدا مرتاحا جدا بالرغم من أنه قد أضاع ما يقارب السنتين، إلا أنه كان يبدو سعيدا لأنه سيدرس شيئا يحبه هو.

الثالث والعشرين من تشرين الأول ١٩٩٧، الساعة الثالثة فجرا:

جاء أسامة وزوجته وابنته لقضاء بضعة أيام معي، أما نزار فقد بقي في فنتيل مع العمة وفاء للتحضير لامتحاناته.

كانت ابنته ريم رائعة جدا أحببتها من كل قلبي وتمنيت أن أرزق بطفلة مثلها يوما.

السادس والعشرين من تشرين الأول ١٩٩٧، الثامنة والربع مساء:

أصبت بحمى شديدة البارحة وتأبى إلا أن تلازمني، أشعر بالتعب والإرهاق الشديدين حتى أنني بالكاد أستطيع كتابة هذه الكلمات.

والأسوأ من هذا أن مدير المعهد اتصل بي طالبا مني الذهاب غدا صباحا إلى فنتيل للاطلاع على عقد العمل وتوقيعه، وهذا ما يقلقني فأنا لا أستطيع الذهاب بحالتي هذه.

السابع والعشرين من تشرين الأول ١٩٩٧، العاشرة صباحا:

كان أسامة يعلم بالذي يقلقني، فأخذنا نفكر بحل، وفجأة نظرت إليه وفي نفس اللحظة نظر هو إليّ أيضا مع ابتسامة رائعة!!

فانفجر كلانا بالضحك لأن كل واحد منا كان يعلم بما يجول في ذهن الآخر!!!

فقال بثقة وهو لايزال يضحك: سأذهب أنا عوضا عنك!

أحسست بالراحة لهذا القرار، فقد كنت مطمئنا إلى أن كل شيء سيجري على ما يرام فلطالما لعبنا هذه اللعبة ولم يكشفنا أحد!!

فلبس ثيابي واستبدل محافظنا وهواتفنا، ثم سرح شعره مثلي تماما وأخذ بطاقتي، ووضع بطاقته مع محفظته على الطاولة وذهب!!!

أوصل زوجته وريم لزيارة إحدى صديقاتها على أن يمر عليها مساء في طريق عودته ويعودا معا إلى بيتي.

شباط ١٩٩٧:

لم يعد هناك أي معنى للوقت ولا للأيام....

لا أعرف ماذا أكتب لأنني ربما لم أعد أعرف من أنا أو ماذا أكون!!!

في ذلك اليوم المشؤوم ...السابع والعشرين من تشرين الأول من العام الجاري، توفيَ شقيقي أسامة في حادث على الطريق السريع بين باشتيل وفنتيل أثناء ذهابه لتوقيع ذلك العقد اللعين.

توفي شقيقي بسببي، بسبب عقد تافه لم ولن أحصل عليه بعد اليوم.

المصيبة الكبرى تكمن في تبادل الشخصيات، فعندما وقع الحادث ونقل أخي إلى المشفى تعرفوا عليه على أنه زيد باكير، فكل شيء كان يشير إلى ذلك، الهوية والأوراق الرسمية، حتى الهاتف والأرقام التي فيه تدل على أن المتوفي زيد باكير، بالإضافة إلى أنهم كانوا قد علموا بموضوع توقيع العقد في ذلك اليوم.

بعد خروجه من البيت بساعتين فقط جاء اتصال من رقم غريب على هاتف أسامة والذي لم يكن سوى من الشرطة تطلب مني (أي من أسامة) الذهاب إلى أول مشفى في فنتيل للتعرف على أخي الذي تعرض لحادث سيارة وتوفي!

حينها شعرت بالضياع وبالألم وبتأنيب الضمير. لم أعرف ماذا أفعل، بكيت كالأطفال لفترة طويلة لا أعلم كم استمرت، بعد أن هدأت قليلا اتصلت بزوجته من هاتفه وأخبرتها أن تعود إلى البيت فورا.

أخذت تبكي قبل أن تعرف شيئا وكأنها علمت بأن مصيبة قد حصلت، فهدأتها قدر استطاعتي إلى أن وصلت إلى البيت.

لم أكن أعلم كيف أواجهها أو كيف أخبرها فقد كنت أنا السبب فيما حصل، أخذت تبكي بحرقة وتشهق بشدة وتصيح بألم حتى تقطع قلبي، تركتها وذهبت إلى غرفتي. وضعت رأسي بين يدي وأخذت أفكر بالذي سيحصل بعد اليوم.

بعد ثلاث ساعات تقريبا سمعت طرقا خفيفا على باب الغرفة، كانت ديما ففتحت لها الباب، دخلت كجثة هامدة وجلست على السرير بصمت وهي تحتضن ابنتها بشدة وكأنها تخشى أن تفقدها هي أيضا، ثم نظرت إليّ بعينيها الحمراوين فأشحت بوجهي عنها.

فقالت بهدوء: ماذا سنفعل الآن؟

جلست بانهيار على المقعد وغطيت وجهي بيدي وعدت للبكاء من جديد....

لكنها لم تتحرك وأعادت نفس السؤال علي، فمسحت دموعي بثيابي وقلت لها بصوت مبحوح: لا أعرف!

ثم صرخت بالحقيقة التي كنت أحاول تجاهلها: أهذا يعني بأنني أنا الذي توفيت؟؟!

حينها عاد هاتف أسامة للرنين من جديد ولكنني لم أرد، فقلت لها:

- **دعينا نذهب الآن إلى فنتيل.**

فقالت بأسى:

- **ماذا سنقول لهم؟**

فقلت ببساطة ممزوجة بغضب هائل:

- **سأعترف لهم بالحقيقة! سأخبرهم بأن أسامة هو الذي توفي وليس زيد!**

فردت علي وهي تحاول إخفاء دموعها التي بدأت بالانهمار من جيد:

- **أنت تعلم عقوبة انتحال الشخصيات هنا!**

أجبتها قائلا:

- **أسامة هو الذي انتحل شخصيتي وأعتقد بأنه قد لقي أكثر مما يستحق.. الآن .. لن يفعلوا شيئا...فنحن شقيقان!**
- **لا أعتقد بأن الأمر بهذه البساطة، إلا إذا أردت أن تبقى باستضافتهم بضعة أشهر في التحقيق والإذلال، وبانتظار قرارهم بالعقوبة المؤكدة!!**

أخذت أجول الغرفة بتوتر ثم أخذت أضرب رأسي بالحائط بشدة، وضعت رأسي بين يدي أجهشت بالبكاء.

صمت مطبق يتسرب منه دموع محرقة امتزجت بصراخ ريم الصغيرة ربما لتزيد الطين بلَة.

عاد هاتف أسامة بالرنين مجددا، كان لابد من اتخاذ القرار بأسرع وقت كي لا يشك أحد بالأمر، فقلت لها بحزم:

- **إذا ماذا سنفعل؟**
- **لا شيء.... لقد توفي زيد باكيرا!**

نعم هكذا قررنا، وصلنا إلى فنتيل بعد سبع ساعات من إعلامنا بالأمر مما أثار أسئلة الشرطة بطريقة مستفزة جدا.

كان لابد من رؤية الجثة، نظرت إليَ ديما وقلت لها: لا داعي لأن تدخلي!

فتعلقت بثيابي كطفل صغير ونظرت إلي بعينين حمراوين مغرقتين بالدموع، فأمسكت يدها وضغط عليها مشجعا

وأدخلتها معي حيث يرقد شقيقي ...توأمي.. و نصفي الآخر....آآآآآآآه يا ربي....

لا أستطيع تذكر ما حدث بالتفصيل سوى أن ديما قد أغمي عليها فأخرجونا من الغرفة فورا.

خرجنا من المشفى بعد أن وقعت على تلك الورقة واستلمنا شهادة الوفاة...أخذت أنظر إليها وإلى الاسم المدون عليها ثم أخذت أضحك بجنون وهستيريا تصيب من حولي بالذعر، وضعت رأسي على مقود السيارة وأغلقت عيني.

استيقظت بعد فترة لم أعلم أنها كانت طويلة لأجد ديما ترقد في المقعد الخلفي مع ابنتها ريم، لم أفكر بشيء فقط أدرت المفتاح وقدت السيارة عائدا للبيت.

في اليوم التالي جاءت عمة ديما وأخي نزار إلى باشتيل وقد أخبرناهما بكل شيء، أما العمة وفاء فلم تتغير ملامح وجهها ولم تعلق على الموضوع ولكنها أخذت تنظر إلى لفترة وجيزة ثم قالت: كم تشبهه!!

أما نزار فقد انهال عليّ ضربا، لم أعرف لماذا ولكنني لم أقاومه بل فتحت له صدري وكأنني أقول له اضرب كما تشاء فقد كنت حينها بحاجة لمن يعاقبني على الأقل بالضرب!

احتضنني بعد ذلك وأخذ يبكي كالأطفال ويصيح بأسى فقد كنت أعلم بأنه كان يحب أسامة كثيرا.... ربما أكثر مني.

بعد فترة انتبهت أنه ليس لائقا بأن تبقى ديما معي في البيت، وأنه يجب أن نجد حلا لهذه المشكلة فأمام الناس أنا أدعى أسامة باكير زوج ديما، بالإضافة إلى أنني لم أشأ أن أبقى تحت ناظريها لأنني ببساطة كما قالت عمتها أشبه أسامة بل أنا أسامة بحد ذاته!

ناديت على ديما وعمتها أخبرتهما بأنني أريد أن أتحدث معهما في موضوع مهم.

- ماذا سنفعل الآن؟

فأجابت العمة وفاء:

- سنسافر إلى رودهال حيث يعيش خالي هو وعائلته.

فقالت ديما لتؤيد ذلك:

- نعم سنعمل على ذلك في أقرب وقت.

أطرقت رأسي وتنهدت بارتياح لهذا القرار ثم أخذت أفكر بمصيري المجهول، فنظرت إليهم كطفل تائه وسألتهم:

- وأنا؟؟!

تبادلتا النظرات ثم قالت ديما:

- أظن أنه عليك الانتقال إلى فنتيل...إلى وظيفتك.... ورواياتك!

حملقت فيها وقلت لها بسذاجة وغباء:

- وظيفتي؟؟! رواياتي!!!

فقال نزار وهو يشيح بوجهه عني:

- ألم تختر تبادل الأدوار؟!!

التفت إليه بغضب وحزن وأسى، فقد شعرت بالظلم، فما ذنبي أنا؟؟ فأنا لم أجبر أسامة على فعل ذلك في ذلك اليوم.، بل أخذ مكاني بكامل إرادته وتبرع بتوقيع العقد بدلا عني برحابة صدر بل وبابتسامة أيضا!

ثم من قال لهم أنني لست راضيا بحياتي؟ فأنا أهوى الرسم وأعشق التوقيع بلقب الرجل الرمادي على لوحاتي، فكل ما أردته هو القليل من التغير وليس التبديل!!

تركتهم وذهبت إلى غرفتي، أغلقت الباب بقوة خلفي واستلقيت على السرير، حاولت أن أفكر بكل شيء وبماذا عليّ أن أفعل وبالذي حصل ولكن النعاس غلبني بل ربما قتلني فنمت إلى ظهر اليوم التالي.

استيقظت على صوت ريم وهي تبكي، فقلت بأسى وبنصف ابتسامة: لا تبك حبيبتي، لا تبك يا ابنتي، أولم تصبحي ابنتي الآن!!

اعتدلت وأسندت ظهري إلى السرير وقررت حينها بأن أفكر!!

بعد ساعتين من التفكير المتعب خرجت بالقرارات التالية: أن أذهب إلى فنتيل وأعيش في شقة أسامة، أن أستلم وظيفته والعمل في الدكان أيضا، والتأكد من استقرار ديما وابنتها وعمتها وفاء في رودهال، ثم بعد عدة أشهر أصدر ما يثبت بأن أسامة باكير قد طلق زوجته ديما، أما بشأن ريم الصغيرة فسأشتاق لها كثيرا.

أخبرت الجميع بقراراتي ولم يعترض أي أحد على أي منها، وتعاهدنا جميعا بألا نخبر أحدا بهذا الأمر أبدا.

وهكذا بعد أسبوع سافروا إلى رودهال، حزنت بل بكيت لفراق ريامي، فقد كنت أحبها من كل قلبي، فهي جزء من أسامة، ذهبوا وتركوني في عالم مظلم مجهول مع نزار الذي لم يكن قد تمالك نفسه بعد.

عانيت في البداية من التواصل معه بالكلام أو بأي طريقة أخرى ولكنني لم أتركه حتى أفهمته الأمر على حقيقته وأنه وإن أراد سوف أذهب وأعترف بكل شيء وليحصل ما يحصل.

إلا أنه احتضني وقال وهو يبكي: أنا آسف يا زيد...أسف وحزين جدا...أنا لست غاضبا منك أنا حزين لأجلك فكيف ستعيش هكذا؟؟ كيف ستتخلى عن نفسك وعن حياتك؟!!

آذار ١٩٩٧:

لم أكن أعلم بأن هذا الدكان سيكون ملجئي من الغربة والضياع.

لقد أصبح الدكان ملكا لي الآن فقد وجدت أوراقا كان يحتفظ بها أسامة تثبت انتقال الملكية من (العم صالح) بعد وفاته إليه.

حاولت أن أتأقلم مع حياتي الجديدة لكنني لم أستطيع، تخيلوا حتى أنني لم أعد أعرف ما هو اسمي...ينادونني (أسامة)، ولكنني لا أجيب، ليس عن قصد، ولكنني اعتدت أن يكون اسمي زيد لا أكثر ولا أقل.

أخذت إجازة لمدة أسبوعين بحجة وفاة شقيقي (زيد)، فقد كان لابد من أن أعرف تفاصيل حياة أسامة حتى أدق شيء فيها لكيلا يشك أحد في أمري.

اتصلت بي ديما البارحة وأخبرتني بأنهم بخير وأعطتني رقم هاتفهم الجديد هناك لأتمكن من الاتصال بهم.

عدت إلى الشقة وبعثرت كل محتوياتها، أخرجت كل الأوراق وكل الكتب والروايات، أخرجت ثياب أسامة من الخزانة حتى أنني ذهبت إلى المطبخ ونظرت في كل جزء منه علني أجد هناك شيئا مفيدا!!

قضيت وقتي بالتدرب على حياتي وشخصيتي الجديدة، أصبحت أرتدي ملابس أسامة فقط آكل من الطعام الذي كان يحبه وأستخدم العطر الذي لم يكن يشتري إلا منه.

قرأت الأربع روايات التي نشرها عدة مرات، احتفظت بالأوراق المهمة في صندوق والتي كانت عبارة عن ملكية الدكان، عقد إيجار الشقة، عقود كانت بين أسامة ودار النشر من أجل رواياته، عقد العمل في المؤسسة والأهم من ذلك شهادة وفاتي، أقصد شهادة وفاة زيد باكير، فأنا أسامة باكير منذ الآن فصاعدا!!!

بعد أن رتبت أموري في فنتيل عدت إلى باشتيل وقمت ببيع بيتنا مرغما فقد كنت بحاجة إلى بعض النقود، فاقتسمت المبلغ مناصفة بيني وبين نزار الذي كان لابد من أن يأخذ حصته، والتي لم تكن قليلة فادخرها في المصرف لاستكمال دراسته في الجامعة. أخذت ما تبقى من حاجياتي الشخصية ولوحاتي التي لم تعد ذات فائدة، وعدت أجر أذيال الحزن إلى فنتيل...إلى المجهول.

كان ذلك آخر يوم من الإجازة المزعومة وكان علي أن أذهب إلى العمل في اليوم التالي!

استيقظت باكرا جدا أي أنني لم أنم بشكل جيد، اغتسلت وارتديت قميصا أسودا وبنطالا رماديا وسرحت شعري كما كان يفعل أسامة، واستخدمت عطره من أجل لحيتي، ثم خرجت حاملا في يدي حقيبته الجلدية والتي كنت قد

اطلعت على محتوياتها مسبقا حيث علمت بأنه لها علاقة بعمله ولكن ما نوع هذه العلاقة بهذا العمل.. لم أكن أعرف!

استقبلني الجميع بحرارة وفي وجوههم علامات التعاطف بسبب المحنة التي أصابتني بفقد شقيقي، فعملوا جميعا على مواساتي وتعزيتي وتبادل الكلمات التي كان لابد من أن ترفع معنوياتي قليلا لو لم يكن الوضع كما كان حينها.

وصلت إلى آخر الرواق ثم التفت للخلف فسألت أول من وقعت عليه عينيّ، والتي لم تكن سوى سيدة ربما في عقدها الثالث:

- لو سمحتي أين يقع مكتبي؟

نظرت إليّ بنظرة لن أنساها طوال حياتي ثم ابتسمت وقالت:

- أقدر موقفك سيد أسامة وأتمنى أن تكون قويا كما عهدناك، اصعد إلى الطابق الرابع وستجد مكتبك أمام المصعد مباشرة!

أحنيت رأسي وتمتمت بكلمات الشكر وذهبت قبل أن أصبح مصدر سخرية للجميع.

دخلت إلى الكتب ووضعت حقيبتي ثم فورا بدأت برحلة الاستكشاف بين الأوراق والكتب الموجودة في كل مكان، كان لابد أن أعرف ما هو عملي!

قضيت ذلك اليوم كله في المكتب في القراءة والتنقيب والاستكشاف، وبعد عناء فهمت بأن أسامة قد ترقى في الفترة الأخيرة إلى المسؤول عن قبول طلبات النشر!

أي أنه هو الذي يقيّم الرواية المتقدمة إن كانت تصلح للنشر أم لا!

أخذت أقرأ الأوراق الأخرى فوجدت ورقة بخط أسامة، كانت طلبا إلى مدير المؤسسة بفتح قسم يعتني بنشر القصص والروايات للناشئين والشباب لمساعدتهم، ورعايتهم أدبيا!

ثم وجدت ورقة أخرى تحمل تاريخا يعود إلى قبل وفاته بأسبوعين والتي كانت قرارا من المدير يعلن موافقته على اقتراح أسامة وأنه سيعينه مديرا على ذلك القسم.

أزحت الأوراق جانبا ووضعت رأسي على المكتب وأخذت أبكي بحرقة، فقد استوعبت بأنني كنت أجلس على مقعد شقيقي وفي مكتبه، لقد سلبته فرحته ووظيفته وحياته أيضا، أي أنانية أتصف بها؟

غفوت، نعم غفوت على المكتب ولم أستيقظ إلا على صوت طرق الباب فرفعت رأسي ببطء ونظرت إلى الطارق بعينين نصف مفتوحتين، كان رجلا كبيرا في السن تبدو عليه ملامح الوقار والهيبة.

قال لي بصوت هادئ:

- **آنا آسف جدا يا أسامة لما أصابكم، تعازي الحارة.**

أجبت بصوت هادئ:

- **شكراً لك**

فقال وهو يبتسم بلطف:

- **يبدو أنك متعب، عد إلى البيت واسترح قليلا، فأنت بحاجة لذلك، ونحن بحاجة لك أيضا.**

ثم خرج وأغلق الباب خلفه!

استطعت أن أخمن بأنه المدير، ترى ماذا كان اسمه؟؟ عدت إلى الأوراق التي أمامي وقرأت بصوت خافت: حاتم التميمي!

آب ١٩٩٧:

لا أستطيع القول بأنني اعتدت على حياتي الجديدة ولكنني بدأت بالتأقلم مع الوضع الجديد، على الأقل على مناداتي بـ (أسامة).

كان نزار منشغلا بدراسته فقد أحب تخصصه الجديد (المحاسبة) جدا لذلك أحب الكلية والدراسة.

وكما اتفقنا لم يكن يناديني سوى (أسامة) أمام الناس ولكن مع مرور الوقت لاحظت بأنه أصبح يناديني بذلك حتى في البيت وعندما نكون وحدنا، لا أعلم لماذا !....ربما نسي من أكون، و ربما أنسى ذلك أنا أيضا.

حاولت أن أبذل قصارى جهدي في العمل، ولكنني كنت أجد صعوبة في ذلك، لسببين لأنني لم أكن جيدا جدا في اللغة العربية مثل أسامة، ولأنني لم أكن أحب القراءة كثيراً خاصة إذا كانت مفروضة عليّ!!

لاحظ البعض القليل من التغير في تصرفاتي ومستواي في العمل، ولكنهم كانوا يعزون ذلك إلى وفاة شقيقي وأنني لم أتجاوز الصدمة بعد.

اتصلت بديما اليوم لأطمئن عليها، أخبرتها بأنني قمت بتحويل مبلغ من النقود لها، ثم سألتها عن ريم التي كانت تبلغ سنة وثلاثة أشهر تقريبا. أخبرتني بأنها وجدت وظيفة في إحدى المشافي كممرضة وأنها سعيدة بذلك، وأن وضعهم المادي جيد، بالإضافة إلى أن خال العمة وفاء كان يهتم بهم.

تنهدت بارتياح وأنا أغلق الهاتف فقد كنت أشعر بتأنيب الضمير اتجاهها واتجاه ريم، فلن أنسى يوما بأنني السبب في معاناتهما.

أيلول 1997:

أخرجت شهادة طلاق...كم هذا مضحك!!!

اتصلت بديما وأخبرتها بذلك. لا أعلم لماذا أخذت تبكي، ربما لأننا أبعدناها عن أسامة مرتين، مرة عندما توفي والمرة الأخرى عندما طلقتُها منه!!!

****

الفصل الخامس عشر

نيسان ١٩٩٨:

مضى زمن طويل على آخر مرة كتبت فيها، لم يعد لدي شيء ذو قيمة أو أهمية لأكتب عنه.

اعتدت على حياتي الجديدة حتى أنني نسيت اسمي... لم أعد أفكر بالأمر كثيرا...حتى نزار عاد طبيعيا جدا و كأن شيئا لم يحدث.... اجتهدت في عملي قدر استطاعتي حاولت أن أحب القراءة والكتابة ولكنني بالتأكيد لن أستطيع أن أنشر رواية أبداً، وهذا ما يقلقني كثيراً، فقريباً لن يتركونني و شأني، وسينهالون عليَّ بالأسئلة عن سبب توقفي عن الكتابة والنشر.

حاولت أن آخذ الأمور ببساطةٍ فوق طبيعية فلم أعد أكترث لشيء، اعتكفت في الدكان في كل أوقات فراغي، لم أكن أعود للبيت إلا للنوم أو إذا اقتضت الحاجة لذلك.

تموز ١٩٩٨:

اتصلت بي العمة وفاء وأخبرتني بأنها ستأتي لزيارتي بعد أسبوع وطلبت مني أن أبحث لها عن شقة مناسبة لأنها ربما تطيل البقاء في فنتيل!

سألتها عن ديما وريامي وإن كانتا ستأتيان معها ولكنها سككت ولم تجب!

أشعر بالقلق من مكالمتها، فهل يا ترى حدث شيء سيء؟

آب ١٩٩٨:

كانت تلك من أقوى الصدمات التي تلقيتها في حياتي، بعد وفاة أسامة!

فقد جاءت العمة وفاء تحمل ريامي الصغيرة بين يديها ولوحدها!!!

لم أتفوه بكلمة لانتظارها هي بأن تبدأ بالحديث، لكنها لم تتكلم فقد كانت الدموع تغرق عينيها، فسألتها بهدوء:

- **أين ديما؟ لماذا لم تأت معكم؟**

لم تجب فقلت بهدوء أكثر وأنا أركز نظري على ريم:

- **ماذا حدث لها؟ هل تزوجت؟**

فمسحت دموعها وقالت بصوت خافت: لا

فقلت وأنا أقف ربما لأخفي الارتجاف الذي أصابني: إذا توفيت؟!!!

فنظرت إليَ بحدة وصاحت: لا تقل ذلك أرجوك!!

ثم دخلت في موجة من البكاء المدمر!

بعد أن هدأت أخبرتني بأن ديما قد أصيبت بجلطة دماغية قبل شهرين تقريبا ومنذ ذلك الوقت دخلت في غيبوبة، أخبرها الأطباء بأنها ربما تستمر لوقت طويل جدا ربما لأشهر أو لسنوات، أو ربما لن تستفيق منها!

لذلك قررت العمة وفاء إحضار ريامي لتعيش في كنف أبيها المزعوم!

فلم تشأ بأن تكبر ريم بلا أب أو أم، وأنه وقبل فوات الأوان يجب أن تشعر ريم بأن لها أب في هذه الحياة تعتاد على وجوده من الآن!!

لم أكن أعرف حينها ماذا يجب أن تكون ردة فعلي اتجاه ما سمعت، أأحزن على مصير ديما، أم أفرح بعودة ريامي بل وبامتلاكي لها أخيرا، أم بالتفكير بالمسؤولية الجديدة التي ألقيت على كاهلي!!!

استلقيت على الأريكة وأغلقت عيني، علني أجد ملجأ في النوم من هذه الدوامة التي يبدو أنها لن تنتهي أبدا!!

تشرين الثاني ١٩٩٨:

انتقل نزار للعيش معي في الشقة، لكي تسكن العمة وفاء وريامي في شقة نزار.

كانت تقضي معظم اليوم معنا، تساعدنا في مهام البيت وتطهو وتعتني بريم، ثم وعندما يحين الليل تذهب إلى شقتها لتنام.

كانت ريم قد اعتاد علينا، وعلمناها أن تناديني (أبي) ونزار بـ (عمي) والعمة وفاء بـ (جدتي).

كنت فعلا أشعر بأنها ابنتي، لذلك طلبت من العمة وفاء أن تتركها لتنام ليلا عندي لتعتاد على ذلك تدريجيا.

تعبت معها في البداية كثيرا ولكن بعد أسبوعين أصبحت تنام بجانبي بهدوء كالملائكة!!

كنا نذهب كثيرا لقضاء الوقت مع العمة وفاء فلم نكن نتركها أبدا بالإضافة إلى أن ريم كانت تحتاج لرعايتها أيضا.

أما نزار فقد عقد صحبة مع العمة وفاء، ربما لأنها كانت تذكره بوالدتي، لذلك أحبها كثيرا ولطالما قضى معظم وقت فراغه معها.

كنا نتصل بالمشفى دائما لنطمئن على ديما إلا أنه لم يكن هناك أي تحسن في حالتها الصحية.

كانت ريامي تكبر بسرعة فقد أصبحت تبلغ سنتين ونصف من عمرها، كانت جميلة وذكية جدا وقد أحبتني كثيرا.

كانت دائما تناديني (بابا) حتى عندما لا يكون يتطلب الأمر لذلك، ربما لأنها كانت تشعر بوجود نقص ما!

تموز ١٩٩٩:

كنا مع مرور الوقت قد بدأنا ننسى ديما حتى أننا لم نعد نذكرها إلا قليلا، ليس لأننا لا نبالي لأمرها وإنما ربما لأننا فقدنا الأمل في شفائها وأيقنا بأنها لن تصحو من غيبوبتها أبدا.

لذلك ولا أدري كيف انتشرت شائعة بأن الكاتب أسامة باكير أصبح أرملاً، كيف؟!؟! لا أعلم!!

السادس عشر من كانون الأول ١٩٩٩:

كانت أجمل شيء وقعت عينايَ عليه منذ وقت بعيد، دخلت كالفراشة لتملأ دكاني الصغير بعطرها لكن للأسف لم تكتمل فرحتي لرؤية ذلك الملاك، فلسوء حظي تسببت بإيذائها عن غير قصد عندما وقعت كومة من الكتب والمجلدات الثقيلة من الرف العلوي عليها، لم أتوقع أن تفقد وعيها لسبب كهذا، فحملتها بسرعة إلى أقرب مشفى لأطمئن عليها. حين استيقظت رفضت أن تأخذ أي تعويض، وهكذا اختفت فجأة كما اقتحمت عزلتي فجأة، ليبقى عطرها معشعشا في دكاني وفي خلاياي الشمية حتى أسكرتني!

كانون الثاني ٢٠٠٠:

يا للقدر!!! كم هي الحياة رائعة وصغيرة أيضا.

فقد كانت اليوم تقف أمامي مرة أخرى بل وتحدق بي!!

فبكوني مسؤولا عن نشر روايات الشباب فقد كان لابد من أقابل الآنسة رفيف التي امتلأ دكاني بعطرها قبل شهر تقريبا!

لكن الغريب في الأمر أن روايتها كانت تحمل عنوان (الرجل الرمادي)!!

هل تعلمون عندما قرأت عنوان الرواية انتفض قلبي، فقد أحسست حينها بالضيق ربما لأنني شعرت بالغيرة من البطل (الرجل الرمادي) الذي سلب اسمي وبصراحة فقد كرهت أن يُعرف هو بهذا اللقب بدلا عني!

لهذا لم أوافق على نشر روايتها، أعترف بأنني كنت أنانيا، ولكن ماذا تتوقعون من رجل سُلبت حياته وشخصيته وكل شيء، والآن اللقب الذي لطالما حلم به!!

التاسع والعشرين من آذار ٢٠٠٠:

كانت تلك أجمل وأروع رحلة إلى البحر قمت بها، مع رفيف ورياميِ، لا أستطيع وصف شعوري، ولكنه شيء جميل جداً، لا أدري ولكنني أعتقد بأنني وقعت في حب هذه الفتاة فعلا!!

السادس من نيسان ٢٠٠١:

لم أكن أتوقع بأنني سأغرم بفتاة أحلام نزار، أووه يا إلهي أولا يحق لي بأن أفرح بشيء أو أن أمتلك شيئاً لذاتي؟؟!

أولا يكفي بأنني أعيش حياة هي ليست بحياتي؟ حتى قلبي لم يختر شيئا لنفسي وإنما شيئا يخص شقيقي الآخر!!

ماذا سأفعل الآن، هل سأخسر أخي أم هل سأخسر رفيف أم الاثنين معا؟؟!

الثالث من تموز ٢٠٠١:

سأذهب اليوم لأتبرع بكليتي لوالدة رفيف عوضا عنها، فبعد أن أجريت الفحوصات وتأكدوا من تطابق الأنسجة وفصيلة الدم قررت بألا أدع رفيف تخاطر بذلك، فلن أحتمل أن تصاب بمكروه.

أتمنى أن تنجح العملية الجراحية وأن تتعافى والدتها بسرعة.

لا أعلم كم التاريخ اليوم:

جاء نزار اليوم لاهثا وتعابير وجهه لا تفسر. صاح في وجهي: "لقد خطب أحدهم رفيف، هل تسمع هذا؟؟! رفيف قد ضاعت مني للأبد بسببك أيها المتعجرف!"

أعتقد بأنه وبعد الآن ما من شيء مهم قد أكتبه، فما عاد للحياة طعما ولا معنى كما كانت قبل أن أعرف تلك الفتاة!

أعتقد بأن نصيبي هكذا منذ البداية، شقاء وغموض! أتمنى ألا أرزق يوما بتوأم، هذا إن تزوجت طبعا!!

****

الفصل السادس عشر

كادت رجاء تصاب بالجنون لهول ما قرأت وعرفت، فلم تكن تعلم بأن النظرية التي وضعتها أبعد ما يكون عن الحقائق التي قرأتها، لذلك ابتسمت برضى لاكتشافها سرا غريبا سيتصدر الصفحات الأولى من الصحف، فأخذت ترتب أفكارها من جديد على أوراق بيضاء، فقد عزمت أن تسهر على هذا لتكمل مشروع التخرج وتسلمه في الوقت المناسب.

ولكنها انتفضت فجأة عندما راودتها تلك الفكرة: فماذا سيحدث لأسامة بعد أن تنشر المعلومات والحقائق؟ هل ستضحي بحرية وسمعة شخص بريء من أجل مشروعها ونجاحها؟! هل ستضحي بصداقتها مع رفيف لكي تنال مرتبة الشرف؟؟! كانت تعرف الإجابة تماما، فمزقت تلك الأوراق التي كانت في يدها من دون تردد، ثم أخذت ذلك الدفتر الأزرق وذهبت إلى الدكان متجاهلة تساؤلات رفيف الغاضبة.

وصلت هناك لتجد أسامة جالسا على مقعده ينفث دخان سيجارته وهو ينظر إلى الفراغ، تململت في مكانها لينتبه على وجودها فنظر إليها متأملا لثواني طويلة، ثم ابتسم ابتسامة مخيفة جعلت قلب رجاء يهوي.

شعر بخوفها فتلذذ بلعبته فقال بهدوء وهو لايزال يرسم تلك الابتسامة:

- أهلاً بالسارقة الصغيرة!

ابتلعت رجاء ريقها بصعوبة، وبصعوبة أكبر تقدمت خطوة واحدة فقط (فهذا ما كانت تسمح به مساحة الدكان) ووضعت دفتر مذكراته على الطاولة بيد مرتجفة.

فضحك بازدراء وقال:

- لا فائدة من ذلك، فكم نسخة أبقيت عندك وعند صديقتك اللطيفة؟

نظرت إليه رجاء بحدة وقالت بتأنيب:

- لا دخل لرفيف أبدا.

فتنهد بنفاذ صبر وقال:

- من إذا؟؟ وما هي مصلحتك أنت بفعل ذلك؟! ماذا ستستفيدين؟!

- **اسمعني جيدا سيد أسامة، أولا، أنا أعتذر عما بدر مني، ثانيا، رفيف ليس لها علاقة بهذا الأمر وهي لا تعرف أنني أخذت مذكراتك، ثالثا لم يعد هناك فائدة من ذلك!**
- **كيف هذا؟!**
- **أنت تعرف أنني طالبة في كلية الصحافة، كنت قد طلبت بأن أعيد فتح ملف قضيتكم، قضية آل باكير لأدرسها لتقديم بحث التخرج و....**

ارتفع حاجباه دهشة ثم قال:

- **يا لك من فتاة ذكية آنسة رجاء، والآن ها قد أصبحت المعلومات لديك...**

ثم تابع بازدراء:

- **أتمنى لك التوفيق!**

فقالت وهي تتحاشى النظر إلى عينيه:

- **لن أستخدم تلك المعلومات!**
- **لماذا؟!**
- **لأنني لن أفرط بصديقتي من أجل التخرج!**

لانت نظراته قليلا وأصبحت أقل حدة، فتابعت:

- **لم أكن أعلم أن الأمر معقد إلى هذه الدرجة، كنت قد وصلت إلى استنتاجات مشابهة نوعا ما ولكن ليس بهذا التعقيد، لكن بعد أن عرفت أنك قد تتعرض للمساءلة القانونية وأنني سأثير سخط رفيف، غيرت رأيي وأعدك بأن المعلومات التي عرفتها ستبقى في مأمن معي وأنني لن أخبر أحدا أبدا، حتى رفيف.**

لم يعلق على كلامها، فأدارت ظهرها وخرجت من الدكان والهم والراحة يعتليانها معا، فقد أراحت ضميرها من جهة ولكن من الجهة الأخرى فهي طالبة ستتخرج من دون بحث!!

التفتت على صوته من خلفها:

- **آنسة رجاء....**

استغربت للحاقه بها، ربما لم يكتف من تأنيبها وتوجيه الاتهامات لها، لكنه خيب أملها عندما قال بلطف غير متوقع:

- **شكرا لك!**

ابتسمت تلقائيا وقالت:

- **على ماذا؟**
- **لأنك ستحفظين السر.**

لم تجب واكتفت بأن أشاحت نظرها بعيدا، فسألها:

- **ماذا ستفعلين بشأن مشروع التخرج؟!**
- **لا أعلم!**
- **أستطيع مساعدتك!**

لم تصدق أذنيها فنظرت إليه بأمل، فابتسم وقال:

- **أستطيع أن أساعدك بكتابة تقرير مفصل عن حياة الرسام الراحل زيد باكير شقيق أسامة باكير، بالإضافة إلى إعطائك بضعة من لوحاته! وأنا أؤكد لك بأنك ستنالين درجة عالية عليه!**

أنهى كلامه بغمزة وابتسامة: فكري بالأمر فأنا لا أريد أن أكون أنانيا!

كانت رفيف تمر بأشد ازدحام في حياتها: التحضير للامتحانات النهائية ولمشروع التخرج ولزفافها أيضا، كل ذلك في وقت واحد. كانت قد بدأت تتأقلم مع حياة خالية من آل باكير، كانت رجاء سعيدة لهذا التطور في حياة صديقتها بالرغم من أنها تعرف تماما بأن رفيف لازالت تحب أسامة!

أما رجاء فقد كانت تمضي أغلب الوقت مع أسامة في دكانه ليساعدها في كتابة بحثها عن زيد باكير، لم يضيعا الوقت أبدا وتفانى أسامة في تقديم العون لها وإعطائها أدق التفاصيل عن حياة زيد، لذلك تأكدت رجاء وهي ترفق صوره (قبل عشر سنوات) مع البحث بأنها ستنال درجة ممتازة جدا.

- **ماذا ستقدمين لي بالمقابل آنسة رجاء؟؟!**

استغربت لسؤاله غير المتوقع، فابتسم لكيلا تظنه نذلا:

- **أعني أريد مساعدتك في أمر خطير!**

قالت بتردد:

- **بالتأكيد، ولكن بماذا؟**

فقال ببساطة وثقة:

- **بإفشال زواج رفيف!**

شهقت رجاء واتسعت حدقتا عينيها ثم صاحت:

- **أنت مجنون!!**

فابتسم وقال:

- **اعتدت على ذلك!**

فأكملت:

- **هذا مستحيل!! لن أدمر حياة صديقتي!**
- **إذا تزوجت من ذلك المتعجرف فإن حياتها ستتدمر بالتأكيد، هيا، فأنت تعلمين بأنها لا تحبه!**
- **قد تحبه يوما، ربما بعد زواجهما!**

تقدم إلى الأمام ثم قال بجدية:

- **رجاء، أنا أريد رفيف! ويجب أن أفعل ما بوسعي لكيلا تتزوج من الوليد، فهل ستساعدينني؟!**

لم تجب وأخذت تحدق في صوره التي كانت لاتزال في يدها، فكرر سؤاله بحزم:

- **هل ستساعدينا؟ أنا ورفيف؟**

نظرت إليه ببطء ثم أجابت بصوت هامس:

- حسنا أسامة، سأساعدك!

فقال لها:

-أفضل بأن تناديني زيد بعد الآن!

****

- **رفيف، هل اعتمدتم مكان حفل الزفاف؟**

ابتسمت رفيف بأسى وقالت:

- **لقد حجز الوليد قاعة جيدة هناك في قصترم، أعتقد بأنها قريبة من بيتنا.**
- **هذا جيد.**
- **رجاء؟؟!**

نظرت إليها الأخيرة بنظرة غامضة ثم قالت لها:

- **نعم رفيف؟**

بلعت رفيف ريقها ثم جلست مقابلة لرجاء ونظرت في عينيها وقالت لها بصوت مبحوح:

- **أخشى بأنني لازلت أحب أسامة!**

لم تستغرب رجاء لكلام صديقتها فلم تعلق، ولكنها احتضنتها بهدوء.

كانت رجاء تخبر زيد بكل المعلومات التي تتوفر لديها عن زفاف رفيف أولا بأول، وفي آخر لقاء لهما في الدكان وضعا الخطة التي سيقومان بتنفيذها معا!

بعد ثلاثة أيام من حفل التخرج الذي حضره كلا من، والدها، والدتها، سوار والوليد، كانوا جميعا يجلسون حول المائدة يتناولون العشاء في قصترم.

فقال الوليد بمرح ليقطع ذلك الصمت الممزوج بمشاعر مختلفة:

- **لم يبق على حفل زفافنا سوى شهرين!**

وقفت اللقمة في حلق رفيف عندما سمعت تلك الكلمات وأخذت تسعل بشدة وكأنها لم تكن تريد لأحد بأن يذكرها بذلك الكابوس.

وهكذا أخذت الأيام تمضي بسرعة ما بين التحضير للزفاف وللسفر إلى تيكوبا، وغيرها الكثير من الأمور التي كانت لا بد من أن تدخل البهجة إلى قلب أي عروس كرفيف، ربما لولا تغيير بسيط..... كالعريس مثلا!!!

أما رجاء فقد كانت تعمل على الطرفين وكأنها في معركة تعمل لصالح فرد واحد، بغض النظر عن نتائج ما نسميه الخيانة أو التلاعب!!!

كان شهر تموز يجر أذياله ويلملم بقايا وجوده بسرعة، وكأنه لم يعد يطيق تلك الزحمة، وكثرة المشاعر المتناقضة!

وهكذا هلّ شهر آب بحزن وكآبة على العروس الجميلة، والتي ستتزوج الوحش عنوة، ولكن لإنقاذ من؟؟

وهل كان هناك من أجبرها على الزواج به كما أجبرت تلك الجميلة على الزواج من الوحش؟؟!!

كانت الخطة التي وضعها زيد بمساعدة رجاء قد انتهت وكانا على أتم الاستعداد لتنفيذها بعد ثلاثة أيام فقط!!!

كانت رجاء لاتزال تشعر بالخوف وبتأنيب الضمير، ولكنها وفي النهاية كانت تقنع نفسها بأنها تفعل هذا من أجل مصلحة رفيف وسعادتها، أما الوليد فأسامة سيتدبر أمره بلا شك!

****

الفصل السابع عشر

في صباح ليلة الزفاف (الثاني والعشرون من آب ٢٠٠٢):

- **رجاء هل أنت مستعدة؟؟!**

سألها زيد وهو يأخذ نفسا عميقا.

تنهدت رجاء ثم قالت وهي تثبت نظرها على باب البيت:

- **نعم!**

وهكذا دخلت رجاء بيت اليمامي – الذي أصبح بيتها أيضا- على الموعد الذي اتفقت عليه مع رفيف لتذهبا إلى الصالون النسائي لتجهيزها، وقد رتبت رجاء أمرا لسوار لينشغل به لكيلا يوصلهما بسيارته، ثم نصحت رفيف بألا تقود هي الأخرى لأنها متوترة وأنها ليست بحاجة لقتل نفسها في ليلة زفافها، لذلك وبعد جدال مع الجميع أقنعتهم رجاء بأن أفضل حل هو بأن تذهبا بسيارة الأجرة التي أوصلتها قبل قليل والتي لاتزال تنتظر خارج المنزل نزولا عند رغبتها!!!

ركبت الفتاتان السيارة على المقعدة الخلفي بهدوء ووضعتا الحقيبة التي تحوي ثوب الزفاف الأبيض وأشياء أخرى في المقعد الأمامي بجانب السائق والذي لم يكن سوى زيد!!!

وهكذا بدأت الخطة تأخذ مسارها الصحيح.

كان قد ارتدى معطفا أسودا خفيفا ذو قبعة تغطي وجهه ونظارة بيضاء مزيفة على عينيه لكيلا تتعرف عليه رفيف قبل الوقت المناسب!

ولكي تبدو الأمور طبيعية اتصلت رجاء بسوار وأخذت تناقشه بتلك المهمة التي طلبت منه تنفيذها، ألا وهي التوصية على باقة ورد كبيرة جدا لتقدمها هدية لرفيف، ولكن سوار أخبرها وهو عند محل الزهور بأنهم من المستحيل أن يصنعوا لها باقة ورد كبيرة بنفس اليوم وبساعة واحدة فقط!!

لكن رجاء احتجت احتجاجا مصطنعا- فقد كانت تعرف النتيجة مسبقا- وأخبرت سوار بألا يتحرك من مكانه وأنها ستوافيه هناك، وهكذا وربما لينتهي دورها في تلك الخطة التفتت نحو السائق ثم قالت له:

- **لو سمحت يا عمي هلا أوصلتني إلى محل الزهور الذي يقع على الطرف الآخر من الشارع أولا!!!**

نظرت إليها رفيف بحدة وسألتها باستنكار:

- ماذا يعني هذا؟؟!

نظرت إليها رجاء وشعور بالذنب يسحق ضميرها فتدخل أسامة قائلا محاولا أن يغير نبرة صوته:

- لا تخافي آنستي فأنت بأمان معي فأنا العم زيد، ألم تسمعي بي من قبل؟؟! ثم إننا على وشك الوصول إلى وجهتك فلا تقلقي!

علمت رجاء بأن زيد يريد أن يطمئنها وكأنه أيضا يتوعدها بأن تخطئ أو أن تتراجع، فقالت:

- أنا آسفة يا رفيف، ولكنني يجب أن أوافي سوار هناك فهو في أزمة ربما لا يستطيع حلها سوى النساء!!

ولكنني أعدك بأنني سأوافيك إلى الصالون النسائي في غضون عشرين دقيقة أو أقل، اتفقنا؟؟!!

نظرت إليها رفيف بخيبة أمل، وأجابت بفتور:

- حسنا ولكن لا تتأخري!

قاطعهما (العم زيد) وقال لرجاء:

- ها قد وصلنا آنستي!

أرادت رجاء أن تدفع الأجرة لتوهم رفيف بحقيقة لأمر، ولكيلا تشك في شيء، إلا أنه قال لها:

- لا عليك آنستي، ستدفعه لي العروس عندما أوصلها!!

نزلت رجاء لتترك رفيف في ذهول من وقاحة ذلك السائق، فقالت في نفسها: لا أدري بمن يذكرني!

قطع صمتها وقال لها:

- مبروك آنستي لا بد من أنك سعيدة، فمثل هذه المناسبة لا تأتي إلا مرة في العمر!

نظرت إليه عبر المرآة لتتلاقى نظراتهما، كان الشحوب باديا على وجهها وعيناها حمراوان من كثرة البكاء، فأجابت بنزق:

- اهتم بشؤونك!

رفع حاجباه وابتسم ثم قال لها:

- ما هو العنوان الذي ستذهبين إليه آنستي؟!

مضت أكثر من خمسة عشرة دقيقة وهي لاتزال تجلس في تلك السيارة الصفراء مع ذلك السائق الذي لا يحتمل فشعرت بالقلق فسألته:

- ألم نصل بعد؟!

فأجاب:

- أخشى أنني أضعت الطريق، ولكن لا تقلقلي سأوصلك قريبا أعدك بذلك!

كانت على حافة الانهيار منذ عدة أشهر، وها قد أتى ذلك السائق لتصب غضبها عليه فصاحت:

- أضعت الطريق؟!! ألا تعلم بأنني يجب أن ألحق بموعدي؟! ها قد تسببت بأول نحاسة في يوم زفافي!

لم يرد عليها فقد بات يعلم أنه من الأفضل لأي شخص أن يبتعد عن رفيف عندما تكون في أوج غضبها!

مضت عشرون دقيقة أخرى قبل أن يركن السيارة على جانب الطريق، فأمالت جسدها إلى الأمام لتواجهه عن قرب وقالت له وهي تلفح وجهه بلهيب صراخها:

- أين نحن الآن أيها العم الأمين؟!
- أنا آسف ولكنني لا أعرف المكان!! ولكن لا تغضبي فلن أطلب منك أجرة الطريق!
- أريد أن أعلم من ذلك الغبي الذي أمنحك رخصة القيادة!

لم تكمل وإنما تنهدت ثم أخذت تبكي بصبر نافذ، وتضرب مقعد السيارة الجلدي بقوة. شعر بقلبه ينتفض لمنظرها المحطم، فلم يكن يتوقع بأن رفيف القوية قد تنهار أمام سائق لأنه لم يوصلها!

نظرت إليه بحنق وهي تفتح باب السيارة وتسأله عن حسابه، فقال لها:

- إلى أين تذهبين آنستي؟!
- إلى أين برأيك؟؟!! لأركب أي سيارة أخرى لتوصلني، والآن أرجوك خذ حسابك وأنزل حقيبتي.

لم يتحرك وإنما قال لها ببساطته المعتادة:

- لن تجدي سيارة أجرة هنا، على ما يبدو بأنك لم تتنبهي بأننا وصلنا إلى أطراف قصترم وبعد عدة كيلومترات سندخل فينتيل!!

حملقت في النافذة بذهول، ولم تتكلم وكأنها لم تصدقه، فشد حزام الأمان وأغلق أقفال الأبواب، وانطلق بالسيارة مرة أخرى، فأمسكت بكتفه وصاحت به:

- توقف إلى أين أنت ذاهب؟! قلت لك توقف!
- لا أستطيع آنستي فهذا هو الصواب!

حينها بدأت تفقد صوابها وبدأ الرعب يدب في قلبها فقد علمت بأن هذا السائق يختطفها!!

ونظرا لهجومها الساحق وضرباتها المتلاحقة أوقف السيارة، والتفت إليها و هو ينزع معطفه عن رأسه ونظارته، ثم قال وهي تحدق فيه بخوف:

- **رفيف اهدئي أرجوك أنا أسامة!**

كانت تحدق فيه ويداها ترتجفان في حضنها فقالت بصوت هامس:

- **لا بد أنني في حلم أو كابوس، لا بد أن تلك الحالة قد عاودتني مجددا!**

فربت بيده على كتفها وقال لها:

- **رفيف، أنا أسامة وأنت لست في حلم وصدقيني لن تتزوجي من الوليد!**

- **لقد اختطفتني!**

فابتسم وقال:

- **هذا ما وعدتك به، أتتذكرين!**

فصاحت قائلة:

- **أنت مجنون، أعدني إلى البيت الآن، أنا أكرهك!**

- **سنذهب إلى (رودهال)!**

رفعت يدها وصفعته بعنف على وجهه وقالت بحزم مؤلم:

- **من تظن نفسك؟؟ أنت لست سوى عاشق جبان ومتزوج أيضا، لذلك أعدني إلى البيت الآن، سأتزوج من الوليد واليوم، هل تفهم؟!**

كان ينظر إليها بحزن وخيبة أمل، فالتفت إلى واجهة السيارة الأمامية ربما لكيلا ترى تلألأ الدموع في عينيه ثم أدار المفتاح وانطلق بالسيارة عائدا من حيث أتى، وكأنه يقودها إلى المذبح بإرادته. كانت تحارب دموعها وتسعى جاهدة لكتم صوت بكائها فأسندت رأسها على النافذة الصغيرة وأغلقت عينيها.

فقال لها وهو يحاول تركيز نظره على الطريق:

- **أمامنا خمس وأربعين دقيقة حتى نصل.**

ثم أردف وهو يعطيها دفتر مذكراته الأزرق:

- **أعتقد بأنه حان الوقت لتقرئي هذا!**

أخذته بيد مرتجفة وهي تمسح دموعها باليد الأخرى، ثم بدأت بالقراءة (مذكرات زيد باكير).

الفصل الثامن عشر

كانت رفيف في حالة تشبه ما يسمى بالشفافية أو اللاوعي لدرجة أنها شعرت بانسلاخها من الزمن والتاريخ والوقت والمكان، وكأنها وبقوة خارقة دخلت تلك المذكرة لتعيش أحداثها ووقائعها تماما كما فعلت أليس في بلاد العجائب!! لم تكفيها الخمس والأربعون دقيقة لتنهي قراءة تلك الصفحات، لذلك لم تشعر بأنهم قد وصلوا أمام الصالون النسائي، وبأن أسامة أو بالأحرى زيد كان قد أوقف السيارة بصمت ولم يشأ بأن يقاطعها.

خرج من السيارة واتكأ على الباب بعد أن أغلقه ربما لكيلا يبث موجات كهربائية تشوش تركيز رفيف أو ربما لكيلا يتداخل الماضي بالحاضر بالمجهول.

أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها وأخذ ينظر إلى الدخان المتصاعد بغيرة وغبطة، ربما لأنه حر أكثر منه هو!!!

بعد فترة من ذلك الصمت الثقيل خرجت رفيف من السيارة بخطى غير متزنة ووجهها أحمر، ربما من البرد القارص أو ربما بسبب قوة مشاعرها وأفكارها. وقفت أمامه من دون أن تنظر إليه وهي لاتزال تحدق بذلك الدفتر الذي أحكمت قبضتها عليه بشدة والذي كان قد ابتل بدموعها.

كان قلبها يهتز بعنف وبكاؤها لم تحاول أن تخفيه هذه المرة، شعرت بأنها ضائعة وضعيفة وربما غبية!

أطفأ سيجارته الخامسة ثم قال بصوت مبحوح:

- رفيف أنا آسف لأنني أخفيت عنك الكثير من الأشياء سواء إن كنت أعلمها أم لا!

رفعت عينيها نحوه ونظرت إليه بنظرة غريبة محملة بمعاني الأسى والعتاب، ثم سألته برجاء:

- من أنت؟!

ابتسم ابتسامة واهية ثم أجاب:

- زيد باكير سيدتي!

- زيد؟؟ الرجل الرمادي؟!! لا أصدق هذا لقد رأيتك في منامي ذات مرة وقد قلت لي حينها بأنك الرجل الرمادي!

كيف هذا من الممكن أن يكون واقعياً؟!

- رفيف أنا أعلم بأنك مشوشة الآن و..

- خذني إلى البيت أرجوك!

نظر إليها بصمت راجياً بأن تمنحه بعض الوقت، إلا أنها دخلت إلى السيارة وأغلقت الباب!

جلس هو الآخر خلف المقود وأدار محرك السيارة وانطلق على الطريق.

نظرت إلى هاتفها فكان هناك احدى عشر مكالمة لم يرد عليها من الوليد وسوار ورجاء و والدها!

فتنهدت، ثم اتصلت على الوليد:

- أنا بخير لا تقلق!

فصاح:

- رفيف! أين أنت، أخبرتني رجاء بأنها لم تجدك في الصالون النسائي؟! هل أنت بخير؟؟!!
- قلت لك لا تخف، أنا الآن في طريق عودتي إلى البيت!
- لماذا لم تتصلي بي لآتي لأقللك؟؟! فكما تعلمين لم يبق سوى ساعات قليلة على بدء الزفاف، كما أن المدعوون على وشك الوصول!
- الوليد...عندما آتي سنتحدث، سأغلق الآن!

نظر إليها عبر المرآة وقال لها وهو يمد يده نحوها:

- هلا أعدت لي مذكرتي لو سمحت؟!

لم تحرك ساكنا وإنما قالت له:

- أعتقد بأنك لم تعطيني هدية زفافي بعد، فلا تستكثر علي هذا الدفتر، أريده لي!

ابتسم ابتسامة لمعت على تلك المرآة الصغيرة لتخيفها ثم انفجر ضاحكا وهكذا لتتطور ضحكته كالعادة إلى شيء مخيف، لكن هذه المرة لم ترتعب، فقالت له بابتسامة كبيرة وبتحدي وهي تشدد على اسمه:

-أسامة، شكرا لك على الهدية، وبالمناسبة أنا أفضل أن أناديك أسامة لا زيد، فلا تنتظر مني أن أصدقك أو أن أرتمي عند قدميك طالبة السماح، أو أن تأتي لتنقذني من العريس الوحش!

- ولكنك لن تتزوجيه صدقيني!
- لا تكن واثقا جدا!

أضاءت مصابيح السيارة الحائط الذي يشكل الجزء الأمامي من بيت اليمامي، والذي كان محاطا بعدد لا بأس به من الأشخاص، والذين عندما توقفت السيارة هرعوا نحوها ليتأكدوا من سلامة رفيف وليطمئنوا عليها، إلا رجاء التي كانت تستند على الحائط بقلق وانزعاج.

فقد الوليد عقله عندما رأى حالة رفيف التي يرثى لها، شعر مشعث مبلل بقطرات العرق، وجه شاحب ولا أثر لبهجة العروس عليه، فلا فستان أبيض ولا شيء يمت لذلك بصلة!

أمسكها من كتفيها ثم قال بقلق وهو يهزها بقوة:

- ما الذي حدث؟؟! رفيف أين كنت؟!

أبعدت يداه عنها بهدوء وربما باشمئزاز، ثم قالت وهي ترفع رأسها وتوجه حديثها للجميع، خاصة لأمها وأبيها، وأيضا لأسامة الذي كان يسترق السمع من نافذة السيارة المفتوحة:

- لم يحدث شيء، كل ما في الأمر أن السائق قد أضاع الطريق، وعندما يئست من الوصول هناك طلبت منه العودة من حيث أتينا، فباستطاعتي أن أتدبر أمري هنا في البيت بمساعدة رجاء! وقبل أن يبدأ أحدكم بالهجوم على السائق، أريدكم أن تعلموا أنه لا ذنب له فهو سائق جديد هنا في قصترم ولا يعرف الطرق جيدا، لذلك لا لوم يقع عليه، وبناء على هذا ونظرا لأن الأمور لم تسر بشكل جيد أقترح بأن نؤجل الزفاف ليوم أو اثنين!!

كلماتها أغاظت الجميع وما جرى أغضبهم جميعا، فتقدم والدها نحوها ولأول مرة ربما في تاريخ اليمامي صفعها بقوة وصرخ قائلا:

- أظن بأنك تهذين، أتعتقدين أن الأمر بهذه البساطة؟؟! أم أنك تريدين أن تجعلينا حديث الناس إلى قيام الساعة؟؟!

اسمعيني جيدا، أمامك ساعة واحدة فقط لتكوني جاهزة وغدا مساء ستسافرين إلى تيكوبا مع زوجك، هل تفهمين هذا؟؟ ولا أريد أي نقاش في هذا الموضوع!

وقبل أن يدخل البيت التفت نحوها وقال بغضب:

- وهذه آخر مرة تركبين فيها سيارة الأجرة، حتى سيارتك لن تحتاجيها بعد اليوم!

دخل الجميع بصمت يشوبه الحزن تاركين رفيف واقفة وحدها تصارع قدرها ودموعها بجانب تلك السيارة الصفراء التي لم ينتبه أحد لوجودها أو لوجود سائقها.

نزل زيد من السيارة بصمت ومسح على رأسها ثم قال بصوت هامس:

- أين هو حبيب القلب ليأتي وليساندك في موقف كهذا؟! أليس من المفترض أن يكون الآن هنا معك؟!

نظرت إليه من بين دموعها ورائحة دخانه تعبث بأنفها ووجوده حولها أرعشها، فاقتربت منه خطوة واحدة وابتسمت رغما عنها وقالت:

- ربما يكفيني وجودك أنت معي!

دهش لردة فعلها وتقلب مزاجها المفاجئ، فابتسم وقال:

- رفيف!

أخذت الدموع تتجمع في عينيها مرة أخرى، فقال لها مازحا:

- ربما يكون الوليد أخوك بالرضاعة، ألا تتذكرين شيئا كهذا؟؟!

فابتسمت بأسى وقالت:

- هذا ليس وقت المزاح، أعتقد أنني في ورطة ويجب أن أتحمل مسؤولية قراري!

فقطب جبينه وقال مستنكرا بغضب:

- ماذا يعني هذا؟؟! لن أسمح بذلك!

قالت وهي تدير له ظهرها:

- لقد فعلت هذا للنيل منك أسامة ولكنني أعتقد بأنني لم أنجح فقد نلت مني مرة أخرى!

ثم دخلت إلى البيت وهي تجر حقيبتها تاركة إياه وحيدا حائرا كسيرا.

كان الجو مكهربا في البيت، فبالرغم من أن الوقت حينها لم يكن قد تجاوز الغروب إلا أن الكآبة وتجاعيد الغضب التي كانت على الوجوه كانت تبعث ظلمة وثقلا في الهواء، فلم تتكلم مع أي أحد ثم دخلت إلى غرفتها مع رجاء، التي نظرت إليها رفيف بعتاب قائلة:

- أنت من ساعد أسامة، أليس كذلك؟!

فأجابت رجاء من دون أن تنظر إليها:

- لا لم أساعد أسامة ولكنني ساعدت زيد!

حملقت فيها بذهول ثم التفت نحوها وقالت:

- لا تقولي لي أنك كنت تعلمين؟

- نعم رفيف، أنا أعلم ولقد ساعدته لأنه صادق ولأنه لا يريد سوى سعادتك!

وضعت رفيف وجهها بين كفيها وتنهدت بعمق عدة مرات ثم قالت:

- هذا أسوأ يوم في حياتي، أشعر بأنني في دوامة من الخداع والظلم والاستسلام، لا أعرف ماذا أفعل!

- رفيف، أنت تصدقين زيد أليس كذلك؟

- **نعم، ولكن لا تتوقعي مني تقبل الأمر بسهولة أو ببساطة، فالإنسان الذي أحببته هو أسامة وليس زيد! هل تفهمين شعوري؟!**
- **رفيف!! دعيني أساعدك الآن، هيا ارتدي ثوب الزفاف، فلم يبق سوى أربعين دقيقة!**
- **هذا هو قدري، أليس كذلك؟!**
- **لا أحد يعلم الغيب، فمن يدري ربما تنقلب كفة الميزان!!**

****

التفتت إليه بحدة وسألته وهو يعلق اللوحة على الحائط:

- **من أين لك هذه؟!**

نظر إليها الوليد ثم ابتسم بسعادة وأجاب وهو يضع يده على كتفها؟!

- **هل أعجبتك عزيزتي؟؟!**

أبعدت يده عنها بانفعال وأعادت سؤالها؟

- **الوليد من أين لك هذه اللوحة؟؟!**
- **كانت لأبي، اشتراها منذ زمن من باشتيل من معرض لرسام شاب قبل سنوات طويلة!**

انتفضت لما سمعت ثم عادت تتأمل تلك اللوحة المعلقة على الحائط، إلى أن تسمرت عينيها على التوقيع أسفلها (الرجل الرمادي)، فابتسم قائلا:

- **إنها رائعة جدا وقد كان والدي يحبها كثيرا!**

تركته واقفا أمام الجدار ودخلت إلى غرفتها ثم أغلقت الباب خلفها لتبكي بحرقة، فخالها (أبا الوليد) هو ذلك الشخص الذي اشترى لوحة زيد قبل عدة سنوات، أيمكن للصدف أن تكون على اتفاق مع القدر إلى هذه الدرجة؟؟

منذ ليلة زفافها إلى ذلك اليوم لم يغب زيد عن بالها، كانت كل ليلة تقرأ دفتر مذكراته إلى أن حفظته عن ظهر قلب، كانت تتخبط بين طيفه وبين وجود الوليد الذي أصبح قدرها الذي لا مفر منه.

والآن ها هي إحدى لوحاته تقبع بإصرار على جدار بيتها لتذكرها به كل لحظة ولتعذبها أكثر.

- **أنا السبب فيما يحصل لي، أولم أبث الحياة في ذلك الرجل الرمادي؟!**

****

بعد ستة أشهر ونصف من زفاف رفيف، تزوج سوار ورجاء والذين لا يزالا يعيشان في قصترم في بيت اليمامي.

- **دعنا نذهب لزيارة رفيف، فقد اشتقت لها كثيرا!**

نظر إليها سوار بعد تفكير ثم قال:

- **هذا رائع، وأنا أيضا اشتقت لتلك الفتاة المشاكسة!**

وهكذا وفي نهاية شهر حزيران كانا في الطائرة متجهان إلى تيكوبا لقضاء إجازة الصيف مع رفيف والوليد.

****

الفصل التاسع عشر

الرابع عشر من أيلول ٢٠٠٢:

سافر نزار إلى تودرام البارحة صباحا، فبعد زواج رفيف ورحيلها إلى تيكوبا، أصبحت الأمور كلها متأزمة، فلم أعد أهتم برياضي ولا بعملي مما أدى إلى غضب العمة وفاء مني.

وكما ترون فقد عدت للكتابة من جديد ولكن على دفتر آخر وقد حرصت على ألا يكون أزرق اللون، لماذا؟! لا أعلم!

لم أكن أتخيل بأن رفيف ستضيع مني بهذه السهولة وللأبد، مازلت أظن أنني في كابوس وسأستيقظ منه يوما، ولكن كلما أتذكر بأنني كنت هناك في حفل زفافها أختلس النظر من بين المدعوين ومن بين دموعي، أعلم بأن ما حصل كان حقيقة مرة يجب أن أتجرعها رغما عني، فأنا أشعر بأن اليأس يحاصرني من كل الجهات و أنه ما من شيء يستحق أن أعيش من أجله.

الثالث من تشرين الثاني ٢٠٠٢:

وصلنا خبر وفاة ديما البارحة مساء، حزنت على مصيرها بصمت ربما لأنني كنت أعتقد بأنها متوفاة منذ زمن طويل، أما عمتي فقد احتضنت رياضي وأخذت تبكي بحرقة، فأنا متأكد بأنها كانت تعتقد بأن ديما ستعود يوما ما.

الأول من كانون الثاني ٢٠٠٣:

ها قد انقضى عام بكل تفاصيله وأحداثه، واليوم يبدأ عام جديد كئيب جدا، فلم يعد العالم يحوي رفيف، فما قيمة الهواء حولي إن لم يكن مشبعا برائحة عطرها؟؟ وما حلاوة الدكان إن لم تكن ستطل علي فيها بعينيها الزرقاوين، باختصار ما كان يجب لهذا العام بالحلول من دون أن يجلب لي رفيف معه.

الخامس من نيسان ٢٠٠٣:

اضطررت للسفر الأسبوع الماضي إلى تودرام، مدينة مجاورة، لأخطب فتاة لأخي نزار من أهلها.

كان قد تعرف عليها هناك في مكان عمله، وبعد أسبوعين كان زفافهما، فرحت من أجله ولكنني في نفس الوقت شعرت بألم وحزن كبير، فنزار هو سبب ضياع رفيف مني وها هو الآن ينسى نزواته ويتركني أصارع الماضي وأصحح أخطاءه! أما بالنسبة لريامي فقد أصبحت عروسا صغيرة الآن وها قد بدأت ملامحها تتغير قليلا لتشبه والدتها، هكذا قالت العمة وفاء، والتي كانت تريد مني أن أتزوج أنا الآخر!

الثاني من أيلول ٢٠٠٣:

لم أجرب شعور الكتابة وأنا في الطائرة من قبل، لا أستطيع إخفاء ابتسامتي، أشعر بأنني طفل صغير مليء بالحماس والطاقة والمرح، أو كطائر يحلق بين الغيوم متلذذا بدغدغة الهواء.

ريامي والعمة وفاء قد نامتا بعد انطلاق الطائرة بساعة وربع، فاغتنمت هذه الفرصة لأفضفض وأخرج مكنونات صدري، ولكن اليوم سأبوح لكم بشيء مختلف ورائع، بشيء كنت أنتظره منذ سبع سنوات!

قبل أسبوعين قررت أن أعود إلى شخصيتي، إلى اسمي وإلى حياتي مهما كلفني الأمر، ولم أكن أظن بأن الأمر سهل جدا لدرجة أنه لم يكلفني الأمر سوى زيارتين إلى المحكمة لتغير اسمي، وبضعة دولارات!

غيرت اسمي إلى (زيد باكر) وأنا الآن منطلقا نحو حياة جديدة، سأذهب إلى مدينة رودهال حيث يقيم أقارب العمة وفاء، هناك لا يعرفني أحد، ولا أحد يعرف أسامة باكير ولا شيئا عن عائلة باكير!

أعترف بأن قراري هذا جاء متأخرا قليلا، أو ربما كثيرا، ولكن بالرغم من ذلك أنا سعيد جدا بأنني استطعت التحرر أخيرا.

أرسلت البارحة رسالة إلى مقر عمل رجاء أخبرها فيها بكل شيء وأعطيتها عنوان خال العمة وفاء – والذي كان يدعى سعيد- في رودهال. لا أعرف لم فعلت ذلك، ربما لأنني كنت أؤمن بأن رفيف ستعود لي يوما ما وأن رجاء ستساعدها في ذلك.

أما الآن فقلبي ينبض بشدة، وكيف لا وأنا أتوق إلى احتضان الفرشاة بين أصابعي كما في السابق، سأرسم من جديد وسأوقع بالرجل الرمادي على لوحاتي التي سأبيعها، وسأتنفس الهواء على طريقتي، فلن أسرح شعري كما كان يفعل أسامة بعد الآن، وسأتعطر بعطري المفضل الذي لاتزال زجاجته تقبع في حقيبتي منذ سبع سنوات..... باختصار سأعود زيـــد!

نعم، سأعود وسيعود الرجل الرمادي أيضا!

الرابع عشر من كانون الثاني ٢٠٠٣:

مضى عام وأربعة أشهر على زفاف رفيف ولم أستطع حتى الآن تجاوز هذه الأزمة بعد، فكل اللوحات التي رسمتها لرفيف!!

لا أستطيع احتمال حقيقة أنني لا أعرف شيئا عنها لأكثر من عام، أتراها سعيدة؟؟! سؤال يراودني فيؤرقني.

أما بالنسبة لرياي فقد ألحقتها بالمدرسة بمجرد وصولنا لكيلا يفوتها شيء من العام الدراسي، وقد كان لابد من أتحدث معها بصراحة:

- **رياي!**
- **نعم أبي.**
- **أريد أن أسألك سؤالا يا بنتي، فلو سألك أحدهم ما هو اسم والدك فبم ستجيبين؟**

نظرت إلي نظرة لن أنساها وكأنها تقول لي، ما هذا السؤال الغبي، فحثثتها على الإجابة، فقالت من دون أن تنظر إلي:

- **أسامة!**

فأخذت اللعبة من يدها لتركز على ما سأقوله ثم قلت لها:

- **رياي، بصراحة أنا لم أعد أحب اسمي، وقد غيرته إلى زيد باكر!**

ظلت صامتة للحظات ثم انفجرت بالضحك ببراءة وقالت لي: لا بد من أنك تمزح يا أبي!

فابتسمت قد شعرت بأنني أظلم هذه المسكينة معي وقلت لها بحنان:

- **رياي، من الآن فصاعدا سيصبح اسمك: ريم زيد باكر، ما رأيك صغيرتي؟!**

أنا أعلم بأن الذي فعلته ربما يكون ضربا من الجنون وأنني قد أؤثر سلبا على ريم، ولكن كان لابد من ذلك، لذلك أخرجت لها هي الأخرى جواز سفر آخر وشهادة ميلاد باسمها الجديد، وأرجو من الله ألا أحتاج إلى تفسير هذا لها بعد عدة سنوات، فبقليل من الحرص والنسيان ومرور السنوات لن يذكر أحد شيئا من هذا وسنعتاد على الأمر، أنا واثق من ذلك.

السادس والعشرون من كانون الأول ٢٠٠٤:

وصلتني البارحة رسالة من رجاء تخبرني فيها بأن رفيف قد انفصلت عن الوليد قبل شهرين تقريبا لكثرة الخلافات بينهما وأنها عادت إلى قصترم لتسكن مع أهلها.

كانت السعادة تتضخم في قلبي حتى شعرت بأنه سينفجر أو سيهوي لا أدري أين!

قرأت الرسالة عدة مرات لأؤمن بأنها حقيقة لا خيال، فاتصلت بها صباح اليوم على مقر عملها ولكنها لم تجب فتركت لها رسالة: أخبري رفيف بأنني سآتي لأخذها!

هكذا ومن دون وعي ألقيت تلك الكلمات وأغلقت الهاتف والسعادة تغمر قلبي، فربما قد آن الأوان لأعيش حياتي مجددا بكل التفاصيل التي أريدها.

****

الفصل العشرون

بعد أن استأجر زيد بيتا قريبا من بيت الخال سعيد، قرر السفر إلى قصترم بعد عدة أسابيع لإحضار رفيف وكان قد أقسم ألا يعود إلا معها.

وقبل سفره بعدة أيام وعندما كان خارجا من البيت ليوصل ريم إلى المدرسة، رأى الخال سعيد مقبلا نحوه فسلم عليه ثم قال له:

- **تعال معي أريد أن أريك شيئا.**

وقبل أن يفتح زيد فمه بسؤال أو باحتجاج، رأى الخال سعيد يمشي نحو البيت، فكان أن تبعه مكرها وهو يقول لرياي بتذمر:

- **آمال ألا نتأخر عن المدرسة!**

كانت على عتبة الباب بانتظاره، وقد اتكأت على الحائط مطرقة الرأس ليتدلى شعرها الكستنائي على معطفها الكحلي وقد أمسكت بإحدى يديها مظلتها ربما لتخفي التوتر الذي اجتاح جسدها وأشعل النار في قلبها.

وعندما سمعت وقع الأقدام تقترب على الثلج الذي غطى المكان، كانت على وشك الهروب إلى الداخل، إلا أن العمة وفاء ابتسمت لها من خلف الباب لتشجعها على البقاء، وعندما ظهروا على الطريق، دخلت هي إلى البيت تاركة رفيف تصارع توترها، ولكنها كانت تعلم بأنها بعد عدة لحظات لن تكون وحيدة أبدا!

كان زيد يمشي خلف العم سعيد ممسكا بيد رياي، وعندما أوشكوا على الوصول كان لايزال يتذمر معترضا على مجيئهم مشيا في صباح بارد كهذا!

لكن الخال سعيد قال له من دون أن يلتفت إليهم:

- **بعد عدة دقائق سينقلب مزاجك السيء هذا وستشكرني على دعوتي الصباحية، انظر هناك وسترى!**

وأشار بإصبعه حيث تقف رفيف متكورة ربما من شدة البرد أو من شدة الارتباك!

نظر إلى حيث أشار له فرأى رفيف تقف هناك فبدأ قلبه يخفق، وازدادت خطواته سرعة بلا وعي ليقف أمامها مباشرة خلال جزء من الثانية!

نظرت إليه ونظر إليها وكأن أحدهما لم يكن مصدقا أن ما يدور حوله أو بالأحرى أمامه حقيقة، وأنه ليس مجرد حلم قاس سينتهي بعد لحظات!

ضمها إليه بقوة فازداد انقباض يدها حول المظلة، وازدادت أنفاسه تسارعا، ثم قال بحنان:

- **رفيف!**

أطرقت رأسها مرة أخرى وقالت وهي تنظر إلى الأرض البيضاء:

- **أتمنى أنني لم أعكر صفو صباحك سيدي!**

فضحك وقال وهو يغمز لها:

- **قطعا لا، وكيف يحدث هذا وقد وفرت علي ثمن تذكرة الطائرة؟!**

فابتسمت وقالت:

- **أخبرتني رجاء بأنك ستأتي ولكنك تأخرت ولم أستطع الانتظار أكثر من هذا، أراد سوار أن يأتي معي ولكنني أقنعته بأنني أستطيع الاعتماد على نفسي!**
- **حسنا آنستي فهل هذا يعني بأنك ستقبلين الزواج بي!**
- **بالتأكيد! فلم أقطع هذه المسافة عبثا، ولكن قبل هذا أريد أن أشكرك لأنك تبرعت بكليتك لوالدتي ولأنك نشرت روايتي في فنتيل.**
- **أووووه، اعتقدت بأنك نسيت!**
- **كيف أنسى هذا وأنا أغبط والدتي لأنها تحمل في جوفها جزءا منك!**

قطع ذلك المشهد الرومانسي صوت الخال سعيد وهو يصيح مبتسما:

- **لقد تجمدنا من شدة البرد، دعونا ندخل إلى البيت!**

****

بعد عام وشهرين.....

كان يمشي بتوتر في الردهة ذهابا وإيابا، إلى أن خرجت الممرضة وقالت له بابتسامة:

- **ولد وبنت! مبروك!**

فصاح بفرح:

- **ريامي، هل سمعت؟؟! لقد أصبح لديك أخ وأخت مرة واحدة!!**

فقالت ريم بلهفة:

- **هيا يا أبي دعنا ندخل لنراهم، هيا!**

فتحوا الباب بهدوء ليروا رفيف مستلقية على السرير الأبيض بينما الطفلين كانا في سريرهما الصغير بقربها، فاقترب منها زيد وقبّل رأسها وقال لها:

- **حمداً لله على سلامتك حبيبتي!**
- **هل رأيت ما أجملهم يا زيد! والأهم من ذلك أننا نستطيع التفريق بينهما!!**

ابتسم زيد وقال بمرح:

-أنت على حق! لقد ارتحت الآن!

ثم أردف:

- **سأترك لك ولريامي اختيار اسم الفتاة! أما هذا الشبل فسأطلق عليه اسم "أسامة"!**

ثم حمل زيد الطفلين في حضنه وقال:

- **أنا بحاجة الآن إلى فرشاة وألوان لأرسم هذه العائلة الرائعة.**

فابتسمت رفيف وقالت:

- **ستكون أجمل لوحة أيها الرجل الرمـــادي!**

****

النهاية

الرجل الرمادي

بعد أن أجبر على انتحال هوية شقيقه التوأم، أصبحت حياته سلسلة من الغموض وتحولت إلى فوضى رمادية. فما هو السر الذي يخفيه دفتر مذكراته؟ وهل ستستطيع رفيف بأن تلون حياته من جديد؟

ISBN 978-1-922452-86-3
90000
9 781922 452863